

A stylized illustration of a woman with long dark hair, wearing a dark sleeveless top and a long skirt, standing in a room. To her left is a desk with a lamp and a vase of pens. Behind her are wooden shutters and lace curtains. The floor is covered with a patterned rug. The overall color palette is muted, with browns, greys, and soft pinks.

عنايات الزيات

الحب والصمت

رواية

المكرهسة

الحُبُّ وَالضَّمَّةُ

رِوَايَةُ مَعْرَبِيَّة



mohamed khatab

المكتبة العربية

تُقدِّمنا

وزارة الثقافة

الموسسة المصرية العامة للتأليف والنشر

بالاشتراك مع

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية



الجمهورية العربية المتحدة

وزارة الثقافة

الحُبُّ والصِّمْتُ

رواية مصرية

عنايات الزنايت

الناشر

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالتاهرة

١٩٦٧ - ١٣٨٦

نَفْسِي

كنت أتصفح الكتاب الغريب . وأقرأ سطورہ الحاملة وأنخيل المؤلفۃ التي
التي كتبته . كانت الكلمات تسيل رقة وعذوبة . في إحدى الصفحات تقول
المؤلفۃ :

لبست ثوباً سماوياً باهتاً — وتذكرت ملاحظة أخى عن تفضيلي للألوان
الباهتة . وردى عليه بأنى أحب هذه الألوان لأنها تجعلنى غير مرئية .

كنت أحب أن أتخفى في لون باهت تضيع فيه معالم جسمى حتى لا ترائى
العيون المحذقة التي تتلفت في كل مكان .

كانت أنوثتى التي تعلن عن نفسها دون أن تأخذ رأى — تفضحنى —
وتخجلنى .

وفي الشارع حينما كنت أسمع كلمات الاشتهااء كنت أتمنى لو انشقت
الأرض وابتلعتنى .

كانت كلمات الاشتهااء ترعبنى وتشعرنى أنى أقرب شيء إلى الخراف
المعلقة من ذيلها تغرى بالأكل .

وهى تصف الحب على لسان البطلة قائلة : كانت يده أول يد تمتد إلى

بدفء الصداقة .. بم عاطفة المشاركة .. وقد هزئت لمسة الحنان تلك .. عندما
قال إنه سيرك لي التذكرة على الباب ذهبت أم لم أذهب ..

وبدت لي التذكرة في تلك اللحظة صك حرية .. حريتي في أن أذهب
حريتي في أن أقبل صداقته أو أرفضها وبدا هذا شيئاً بديعاً . أن أكون حرة
في أن أختار من أعرفه ..

وفي الرابعة كنت قد قررت أن أذهب إليه .. وخلق لي قراري آلاف
العوالم السحرية في حجرتي . ولم أستطع النوم ولا حتى الرقاد مفتوحة العينين
في الفراش ، قمت أرتب الأشياء التي سأذهب بها إليه .. فتحت الدولاب
وأخرجت ثوباً رمادياً باهتاً .. ولكن لا .. أنا لا أريد ألواناً باهتة بعد اليوم ..
أنا أريد لوناً إيجابياً .. لوناً يؤكدني .. ويوجدني أمام عيني .. أنا أريده أن
ينظر إلى ويعرف تماماً أنني أمامه ..

في الخامسة تماماً كنت هناك في الكازينو أنتظره .. أخذت منضدة على
النيل مباشرة .. وجلست انظر إلى المياه التي تختال بين الصفتين .. وسرحت ..
وسرحت .. ليتني نقطة في هذا النهر العريق ... ليتني هذا الطائر الشريد
يقفز من غصن لغصن .. ليتني تلك السحابة المصبوغة بالاحمرار أو تلك النجمة
المجلمة بدفء الربيع .. ليتني هذا الضباب الزجاجي الشفاف .. ذلك الرداء
الذي يغلف النهر والصفاف وهامات العمارات ، والكون يبدو من خلاله
سحرياً لامعاً غير حقيقى ..

ليتني أتخلل إلى ذرات غير مرئية وأنتشر حرة في الزمان والمكان ..
وهي تصف على لسان البطل كيف عادت بأمل خائب وقلب مكلوم ..
ومشيت أنتشر في تعاسي إلى الباب لأختفي في سيارة أجرة تحملني إلى
البيت ..

لماذا يبعد عني أحمد وتفارق يده يدي بلا مبالاة ؟ لماذا تموت أفراس
الاهتمام بعينه ؟ ولماذا يقفل على روحه متاريس العزلة ؟ .. إنه يبعد ويضيع
ويترك يدي في استجداء الرفقة والاهتمام ..

جلست في الشرفة وحيدة أنظر إلى الكون .. وأتأمل السماء .. الغروب
أعطاني معنى حزيناً بأنني يتيمة وبأنني إله صغيراً بلا أب ، بلا نسل ، بلا علاقات ..
الجدران السماء حولي لا تكلمني .. والصمت حولي بلا لسان .. نادى بائع
بصوت منطوق عادي أرجعني سنين إلى الوراء .. ما أقبح شكل الباب الموارب
وعيون الظلام .

رخص وقتي فجأة .. وأصبح وقتاً عادياً .. واكتشفت أن انتظاري
لأحمد هو الذي كان يقيم زمني ويعطيه المعنى .

وتذكرت في الحال عشرات الأشياء التي أبدأ فيها ولا أنهيها . عشرات
المفارشات التي تنتظر غرزة النهاية ، واللوحة المشدودة على الحامل تنتظر اللمسة
وهي تصف بعمق حالات عذاب النفس وتمزق الوجدان الأخيرة ،
شعرت أنني منفية داخل نفسي وفي حاجة ليد تخرجني من داخلي ، أحمد
كان يحاول ، ولكنه كان ما يلبث أن يبتعد ويتخلى عني . صوته هو الآخر
أصبح يأتي إلى من طريق أذني مثل سائر الأشياء .

أنا وحيدة في العالم كله . والناس يبدون مثل نقاط على الأفق الوهمي
البعيد .

أنا منفية عن نفسي ، لا أحد قادر على استصدار عفو عن روحي لتعود
فتحس أن جسدها هذا هو وطنها الصغير الحبيب الذي تملكه .
لو أستطيع أن ألقي وجودي وأوجد في مكان آخر وزمان آخر . زمان
آخر . نعم زمان آخر .

ربما أنا في الزمان الخطأ .

إن مجرد تخيل دنيائى بدونه - بدون حبيب - يجعلها قفراء خالية من كل جميل . بعده عنى مجرد دنيائى من كل شئ . فلا يبقى منها إلا قبح التكرار ورعب الوحدة .

إن أحمد هو الوحيد الذى يتكلم لغنى فى بلد لا يفهمنى فيها أحد .
وفى غمرة البأس تتذكر أحلامها وتكتب كلمات غريبة مثل قطع من الثلج الملتهب : كنت أحلم بأن أكون امرأة خالدة تصنع شيئاً خالداً وتؤثر فى الأجيال .

وكننت فى الماضى نشيطة ، وحاولت فعلاً . رأيت أن الحياة حولى كانت وهماً . كل شئ وهم ... خيال ...

انكسر شئ . كان بداخلى وانهار ، والآن أشعر أنى لم أعد أتمنى شيئاً ،
لا الموت ولا الحياة . لا الحب ولا الكراهية . جفاف فى جفاف . لا شئ .
يبكىنى . لا شئ . يضحكنى . ومع ذلك فلا ابتسامة لا تفارق شفنى . أهى
ابتسامة إشفاق ؟

لم يبق لى إلا ذكرى .

ذكرى أنه ذات يوم بعيد كنت أحلم بأن أصنع شيئاً عظيماً .
وأحياناً تتحول كلماتها إلى تغريدة حزينة من الشعر الرفيع الملهم ،
فتبكى وكأنها تغنى . وتهدهد قلباً طفلاً يرتجف .

عندما يلفنى الحزن كضباب الشتاء ، وتتساقط بقايا ابتسامات الصيف
كأوراق الخريف .

عندئذ تبكىنى السائر المسدلة والشمس الشاحبة عند الأفق .

وأغرق في بحور ذكرى ذات العودة المسحبة .
وأرى شباني في نضجه عديم الفائدة ... رعيداً ...
وأحس بالثلاشي . لا باني غير موجودة .
ويصبح كل شيء سخيفاً بلامعنى . بلا حقيقة باهرة .
ولا أجد مخرجاً سوى أن ألوذ بكبريائي ، لأحتسى من اليأس .
وأشمخ بأننى عالياً حتى لا يصل الضباب إلى قمى الغالية .

★ ★ ★

هذا الكتاب الرقيق « الحب والصمت » هو الكتاب الأول والأخير
الذى كتبه المؤلفة الملهمه عنايات الزيات . فالمؤلفة مانت شابة لم تبلغ الثلاثين .
كانت آلام قلبها العبقري وإنسانيتها المعذبة فوق احتمالها .
أزكى الرحمات على روحها النقية وفنها الرفيع .

(مصطفى محمود)

وقفت وراء زجاج نافذتى أرقب الطريق . الشارع خال موحش ،
ونوافذ البيوت مغلقة مينة ، لا حياة ، ولا حركة . الزمن توقف ، والدقيقة
أصبحت ساعات مملة .

وقتي رخيص ، لا أعرف ماذا أفعل به . أنا لا شيء ، ذهبت وجئت
في الحجرة ، ونظرت من النافذة ، وأمسكت بكتاب عدة مرات ، وحاولت
في كل مرة الاستمرار في القراءة ، ولكنى فشلت ، فأقفلت الكتاب ، وانتصر
الفشل كانتصاره الدائم على . منذ موت أخى لم أعد أستمر في أى شيء .
أنا في الثامنة عشرة ، سن الشباب كما يقولون ، ولكنى أشعر أنى هرمت
فجأة وأصبحت كهلة .

ها هو الشتاء يعود من جديد ، يهز بريجه شجرة الشمس الوحيدة في
في حديقتنا ، ويبعث قلوبه الرعدة في أوصالى ويشيع الأسى في روحي .
أوراق الشجر تتساقط على أرض الحديقة وتتجمع في زوايا الشارع ، ويتساقط
معها فيض من الذكريات الحزينة في خاطرى . ويدفع بإحساس حزين ساحق
إلى قلبى فيغمره بظلامه ويحتاج نفسى من جديد شعور حاد بضباع ذلك
الشيء الثمين من حياتى بضباع أخى ، بموته ورحيله .

يموت هشام فقدت الاهتمام بنفسى ، بحياتى ، بكل شيء ، فقد كان

باعث بهجنى وخالق نجاحى . ولكنه رحل ولم ينتظر ليعرف أنى نجحت
وتخرجت من مدرستى الفرنسية ولم يعد لنجاحى أى معنى . ما فائدة نجاحى
إذا كان هو قد ذهب ؟ ما فائدة أى شئ . ما فائدة أى شئ على الإطلاق ،
وما جدوى حياتى . وما جدوى الحياة كلها ؟ رحل هشام . ومضى بعيداً .
وتركنى مع الوحدة والفراغ ليقنلانى . الوحدة والفراغ المذان عششا فى زوايا
البيت ، وصنعا عنكبوتاً مروعاً يمنص الحياة ويبعث اليأس فى القلب .

والآن عندما أعيد النظر حولى ، وأرى ما تحولنا إليه - أبى وأمى وأنا -
لقد حولنا الحزن إلى ثلاثة غرباء . والصمت أصبح حديثنا . لقد تهشم
غلاف الحنان الذى كان يطوقنا . وسقط حولنا الموت وباعداً ما بيننا . فبعد
موت هشام انفصل أبى عنا . أقام لنفسه عالماً آخر - من صنعه - يعيش فيه ،
وأمى أصبحت كثيرة الصمت قليلة الكلام ، وكان ينخيل إلى عندما أكلهما
أنها تنظر من خلالي لترى شخصاً آخر فى ملامح وجهى . ولاترانى أنا ، وأصبح
وجودى أنا اضطراراً ، وخلت حياتى فجأة من أى معنى . فهشام كان الإرادة
التي تقف وراء نجاحى ووراء حبنى لأى شئ . كثيراً ما تخيلته ساحراً
قادرأ على الإتيان بالمعجزات ، والآن تمر أمامى صورته كما أحيت دائماً
أن أراه وهو يلعب على « المتوازيين » وكأنه روح رفاقه لا يحدها جسد .
أصداء صوته ما زالت ترن فى أذنى حاملة نفس الكلمات عندما سأله عن
سر حبه لتلك اللعبة . أجاب يومها دون أن يتوقف عن التراجع : « إنها
لعبة الإرادة . إنها تتيح لى التحكم فى جسدى كما تتيح لى دراستى التحكم
فى عقل عن طريق الفكر والفلسفة » . وأضاف وهو يضحك « التحكم
هو مفتاح النجاح » .

وكيف مات ؟ مات باللعبة التى أحبها والتى كانت وسيلة التحكم
فأصبحت قاتله .

كان يتمرن في ملعب النادي عندما اختل توازنه ففقد التحكم في نفسه
لثوان ، وسقط بثقل جسده كله على رأسه فمات .

يومها دخلت الفيلا فقابلني السكون . فتح لي عبده السرجي الباب وفي
صنيه آثار دموع . لم يحينى كماداته . ولم ترسم ابتسامته التقليدية على شفثيه .
كان وجهه حزينا جادا .

وتوجست شراً فعبده كان مرآة شفافة لأطوار هشام . كنت أعرف
مزاج هشام من مجرد النظر إلى وجه عبده عند دخولي من الباب ، وكان
حزنه في ذلك اليوم يعنى شراً كبيراً . ولم أسأله . جريت أصعد الدرجات
إلى أعلى ، إلى حجرتي ، وهناك كان يرقد في فراشه وأبي وأمي عند قدميه .
نظرت في وجهيهما . لم تكن هناك دموع في عيونهما ولا حزن . فالحزن ثمرة
آلام لها عمر ، وكان يبدو لي في تلك اللحظة أنهما حزبتان منذ الأزل .

وخطوت ببطء إلى فراشه . وامتدت يدي دون إرادتي فكشفت الغطاء
عن وجهه . وصرخت أُمي وقام أبي إليها وخرج بها من الحجرة .. ونسياني
في غمرة بكائهما ، ونظرت أنا إلى وجهه فلم أصدق أن هشام ، يمكن
أن يموت .. ولم يكن وجهه سوى وجه نائم .. فقط بلا أنفاس تردد في
صدره .. وبدأ لي ساعتها أن الأنفاس غير مهمة لهشام .. وأنه يستطيع أن
يقوم الآن ويجري ويضحك . وأنه أقوى من أي إنسان ، ولن يحتاج إلى
تلك الأنفاس الرخيصة ليحيا .. ومددت يدي أتخمس وجهه ربما يحس بملءها
ويفتح لي عينيه .. أنا أخته نجلاء .. ولكن وجهه ظل ساكناً مثلجاً .. وخيل
إلي أن شيئاً من الزرقة يتسلل إلى شفثيه ، ويتسرب تدريجياً إلى وجهه كله ..
ولأول مرة داهمني شيء من الخوف منه والحجل من نفسي .. لأنني أخاف
أخى عندما سلبت منه الروح .. وأحسست أني أتخلص على كيان شخص

لا أعرفه وخيل لى أنه يشيح بوجهه عنى .. ولم أحتمل هذا الخاطر فقد سلمت لأول مرة بموته .. ارتعيت على جسده ، احتضنته فى هستيريا ، أحاول بصراخى أن أعيد له الحياة .. فتع الباب فى تلك اللحظة ودخل شخص حمله إلى الخارج .. ورحلت فى غيبوبة ومن خلالها سمعت صوت خالى اللزج يؤنب أبى على تركى لى وحدى فى حجرته ولم أسمع شيئاً بعد ذلك .

امتلاً البيت بالأقارب والأصدقاء ، وجاءت أختى (ندى) من إنجلترا حيث يعمل زوجها فى السفارة هناك .

الكل جاء يعزى .. وامتلاً البيت بعشرات العيون تحديق فى وتفرض نفسها على وتدخل فى أعماقى .. وأحسست أنى عارية وأن تلك العيون تتلصص على خصوصية تفكيرى وتفرض نفسها على وتقرأ أفكارى .. وشعرت أن فرديتى تتبدل وتضيق فى زحمة العيون الفضولية .

حبست نفسى فى حجرتى لأتفرد بحزنى .. وأبكى .. وبكيت أياماً وليالى عديدة ورهفت روحى ولم أعد أحتمل أى صوت .. وأصبحت لا أعيش إلا فى السكون وفى الحجرات المغلقة .. وأصبح صوت فتح باب أو غلقه يفرغنى .. ثم بدأت أهدأ وأتبع الشخص الواقف أمامى .. وغالباً ما كان شبح خالى .. جاءت تظلمن على (نجلاء .. لا تحبسى نفسك فى الحجرة .. ستوتين من كثرة البكاء) .. ولم أكن أرد عليها ، كنت أريد أن أموت حقاً .. وكان صوتها اللزج يطن فى الحجرة ويلتصق بأذنى ويرفض الخروج .. وكان يمر وقت طويل قبل أن تضيق ذبذبات صوتها من أذنى .. ويعود السكون .

وآن للجميع أخيراً أن يرحلوا .. ويتركونا لوحدتنا .. وسافرت أختى راجعة إلى أسرتها .. ولست أدري لماذا شعرت أنها ليست حزينه الحزن الكافى على هشام .. ويومها بعدت عنها .. فالحزن على هشام لا يربط بيننا وكنت قد أصبحت أحب حزنى لأنه امتداد لحبى لهشام .

جاءت نادية صديقة الطفولة ورفيقة الدراسة لتقيم معى بعض الوقت..
وكننت فعلا فى حاجة إليها هى بالذات .. فقد كنت أستريح إليها .. ولم أكن
أخجل من أن أعرض أفكارى أمامها .. ولا كنت أخجل من خوفي ولا من
حزنى .. فقد ربطت بيننا الصداقة والرفقة سنين عديدة وبدأت لى فى تلك
اللحظة أقرب إلى قلبى من (سى) .. كانت صلة القربنى بيننا أشد من الأخوة..
فقد عشنا معاً طفولتنا .. كبرنا معاً ولعبنا معاً .. وفتحت قلوبنا فى سن واحدة.
واجتاحنا ذلك الإحساس اللذيذ المؤرق بأنوثتنا .. وداعبتنا تلك الآمال
المبهمة الغامضة .. خيالات الحب الأول .. وفارس الأحلام .. والقبلة
الأولى ولحظات الكتابة وخوف الفراق .. والبكاء .. والدموع .. والضحك
الغريرة الطفلة .. والتغير الخطير الذى اجتاح جسدنا وغير ملامحه .. كل
تلك العواطف القوارة عشناها معاً .. وعانيناها سوياً فتعانقت عواطفنا
ومشاعرنا وكأنها حياة واحدة .

لم تتركى نادية لأحزاني . كانت تشدنى خارج نفسى وتأخذنى إلى بيتها ،
وهناك كانت الحياة تفرض نفسها على فكنت أنسى لبعض الوقت « هشام » ،
وعندما أرجع كنت أعتب على نفسى وأعنفها تعنيفاً شديداً أنى استرسلت فى
الحياة للدرجة أنى نسيت « هشام » .. وأصبح اسم أخى يترادف فى ذهنى
مع سؤال الدائم عن الموت .. وتخيلته أرضاً مجهولة الشواطئ مطوقة بالغموض
من يكتشف شواطئه لا يعود قط .

ورقدت قلقة فى الفراش .. ودقت الساعة فى هدأة الليل هامة بأن
الزمن مازال يمضى ويبدأ ..

اليوم هو فجر التاسع عشر من نوفمبر ١٩٥٠ ، أنا راقدة فى الظلام
وخوف يملأ قلبى .. وتساؤل .. هل هذا تاريخ حقيقى ؟ وهل الساعة تشير
حقاً إلى الثالثة صباحاً ؟

مات أخى ومات عدد من أقاربي فى تلك السنة عن حادثة أو كبر أو مرض .. تلك الحوادث تبدو لى مجرد أسباب واهية تنتهى بها وظيفة الجسد وتأخذ الروح طريقها إلى عالم آخر .

لماذا نوجد ؟ .. ونعيش ثم نموت ؟ أسئلة كنت أسأها لنفسى وأنا صغيرة ولم أكن أجرو على البحث عن أجوبتها فى أفواه الآخرين . والآن بعد أن مرت سنين عديدة .. مازلت أساءل نفس السؤال مع اختلاف بسيط . فأننا أعرف أنه حتى الآخرون لا يعرفون الجواب أيضاً .

طفولة حلوة عشتها .. ولكن أحقاً عشت تلك السنين ؟ ذلك يبدو زمناً خرافياً غير حقيقى وهذا اليوم الذى أعشه الآن .. ستراكم عليه أيام .. وأيام .. وأيام حتى يصبح هو الآخر يوماً أسطورياً بعيداً .. أشك كثيراً إن كنت عشته حقاً من قبل .

ديك بصيح فى الظلام .. وينفذ صوته إلى أذنى الساذجة .. فيخيل إلى أنه يؤذن خصيصاً لى .. ما أنا إلا روح داخل جسد أنى راقد فى فراش .. فى هدأة الليل كآلاف وملايين الملايين من الناس .

ولكن فرديتى تتضخم وتعزلى داخل نفسى .. وتفصلنى عن الكل .. أحياناً أجدى أنظر من داخلى من نافذة عيني إلى الناس والأماكن حولى ولكنى لا أتفاعل معهم .. وكأنى قد انفصلت عنهم .. وعن وجودى .. وخرجت من داخلى أتفرج وأسمع وكأنه ليس لى جسد يتحرك ويعيش . أحياناً أشعر أنى عشت حياتى من قبل ، فلماذا وجدت من جديد ؟

أنا أحس بالغربة عن الناس . أحياناً أشك أنى أحياء فعلاً وأنى موجودة . سأترك جثنى الحية نعيم على صفحة الليل لتتقلنى للغد ، لأيام أخرى قديمة .

خرجت بعد ظهر اليوم إلى الشارع .. لم آخذ العربة .. ولم أرد على تساؤل السائق (هل أخرج العربة من الجراج ؟) .

مشيت وحيدة .. لا يصاحبني سوى وقع خطواتي في الطريق الساكن .. ظللت أمشي من شارع إلى آخر .. وقادتني قدماي إلى شارع هادئ كثيف الظلال وتبينت أنه شارع مدرستي .. وبدأ لي المبنى الرمادي من بعيد كوجه حميم مألوف لدى .. وارتفعت خفقات قلبي بالوجيب للمبنى الحنون .. وأرسلت عيني تتبركان بالنظر إليه .. إلى ذلك المبنى العطوف الذي له طابع الأديرة .. وأرسلت روحي تتلمس ذلك الجلال المستتر الذي يشع من وراء كل حجر .. وأخذتني الذكريات في دوامتها .. هنا تسكن بضعة من حياتي .. من أجمل سني عمري .. خطت قدماي ببطء حتى لا تجرح هذا الصمت الحلي أو تبذل صدى خطواتي جلال السكون المحيط بي ..

نظرت إلى المبنى مرة أخرى .. وتساءلت لماذا قادتني قدماي إلى هنا .. إنني أبحث عن حقيقة ألوذ بها .. ومدرستي تلك حقيقة قائمة .. لم تذهب بها الأيام .. إنها ما زالت قائمة ..

همس في أذني همس غريب .. ومن يدريني أن هذه الحقيقة لا يمكن أن تذهب هي الأخرى ذات يوم ..

وهشام ؟ ألم يكن حقيقة نهضة نابضة حية ؟ .. وفي لحظة .. انتهى ..
وأصبح وكأنه لم يوجد .. بل إنه نمر على أوقات أكاد أنساه فيها تماماً ..
لاشك أن موت « هشام » الحقيقي هو نسياني له .. وأنه سيظل حياً طالما أني
أذكره .. فأنا التي أحياء عن طريق يحيا هو الآخر ..

طوفت حول المدرسة .. وشققت بعض عصفير عائدة إلى أعشاشها ..
ودارت حدأة كبيرة دورة كاملة في الفضاء المحيط بالمدرسة .. وانقضت
على الأرض .. ثم عادت للتخليق من جديد .. وجلجل جرس الكنيسة يدعو
الراهبات للصلاة .. ومضيت على أصدااء صوته راجعة مع الغروب إلى القيلا ..
وإلى حجرتي ..

جلست في الشرفة وحيدة أنظر إلى الكون .. وأتأمل السماء .. وأعطاني
الغروب معنى حزيناً بأنى وحيدة .. كأني إله صغير بلا أب ، بلا أبناء ،
بلا نسل ، بلا علاقات ، ألوذ بنفسى وأخافها ، جدراني السماء لا تكلمنى ،
الصمت من حولى بلا لسان ، جسدى مغلق بلا نوافذ ، بلا أبواب ، أتمنى
التزول إلى الطريق من جديد لأكلم أى إنسان ، أريد الخروج من داخل
والإحساس بوجودى الخارجى .

تلفت حولى .. ستائر الظلام أسدلت على الكون كله . ما أقبح شكل
الباب الموارب وعيون الظلام .. نادى بائع بصوت ممطوط عادى أرجعنى
سينين إلى الوراء وتسللت أصوات الليل إلى أذنى .. وتذكرت « هشام »
تدريجياً بدأ الصمت يختصر وتكلم السكون أخيراً وثرثر .. وأضاء الظلام ..
هزتنى نسمة باردة أدخلتنى إلى حجرتي .

أقفلت الشرفة .. وأضأت « الأباجورة » .. وجلست مع نفسى وحيدة .
في الصباح رقدت كسلانة تحت أشعة الشمس .. وتركنتها تدغدغنى

وتدلكنى وتركت عقلى يقفز مهوشاً من فكرة إلى أخرى .. تركته هو الآخر
مطلق السراح كبقية أطرافى . ثقلبت فى مكافئ وفتحت عيني فوجدت
(نادبة) واقفة أمامى .. سألتها باستغراب :

- أنت هنا .. منذ متى ؟
- منذ خمس دقائق .. وقفت أتفرج على كسلك .
- وأنت كلك نشاط يا نادبة هانم ؟
- يمكن .
- هيه .. وما هى أخبارك ؟
- واستلبرت أكثر فرأيتها فى بلوزة مزينة بورود حمراء جميلة .
- جميلة بلوزتك يا نادبة .
- شكراً .. والآن قومى واجلسى معى كالآدميين .
- أنا كسلانة .. والشمس للذيدة .
- كيف تحتملين العيش هكذا ؟
- ماذا أفعل ؟
- قالت فى حيرة :
- لست أدري ؟ .. ولكن ..
- ولم أدعها تكمل كلامها .. أرسلت صوتى فى نغمة ساخرة ..
- هيه ..
- فأثارها صوتى وقالت بحدة :
- ولكنك تستطيعين أن تعمل شيئاً بلا شك .. لماذا لا تخرجين من حياتك
هذه ؟
- كيف .. إلى أين ؟

- إلى الدنيا .
- حقاً ؟ هكذا ببساطة ؟ وماذا فعلت أنت بحياتك وبالدنيا ؟
- أنا هنا لأقول لك إنى قد اشتغلت ..
- صحيح يا نادية .. ؟ مبروك .. أنا فرحانة .. فرحانة جداً من أجلك ..
- إذا كان العمل يعجبك حقاً فلماذا لا تعملين أنت أيضاً ؟ ربما شغلك العمل عن حزنك ..
- ونظرك إليها بمعنى وقلت :
- حتى أنت تتكلمين كأبى وأمى .. ؟ وماذا يضايقكم من حزنى ؟ إنه شيء خاص بى .
- ولكنه يؤذيك ..
- وأنا أحب إيذاءه .
- قالت نادية فى عتاب :
- نانا يا عزيزتى ، لا تتركى نفسك لهذه الأفكار .
- أنت تقولين هذا الكلام يا نادية .. وأنت تعرفين ماذا كان هشام بالنسبة لى .. وما فائدة أن أعمل أولاً أعمل .. وما فائدة أى شيء على الإطلاق ..
- حاولت نادية مقاطعتى .. ولكنى مضيت فى كلامى .. كنت أسمع معها ما أقول .. وكأن شخصاً آخر انبثق يتكلم من داخلى ولا أعرف أى شيء عما سيقوله فى اللحظة التالية .. كنت أغغم فى فبرات آلية ..
- كنا نحلم أنا وهو ..
- كنا نتخيل أننا نسافر إلى بلاد بعيدة .. وكنا نسافر بالفعل ونحن جلوس حجرتنا بأعلى اقميلا .. كنا نركب جناح خيالاتنا إلى أى مكان نريده ..

كانت لنا القدرة على أن نفعل أى شىء .. الآن يموت أشعر أنى انتهيت ..
لأننى أمشي فى ضباب .. عجوز الروح مكتهلة الفؤاد . بل لست وحدى
التي أصبحت عجوزاً .. كل البيت . انظري حولك .. هل هذا بيتنا
الذى تعرفينه ؟ كل شىء . مات فيه حتى الورود فى الحديقة ذبلت وشاخت ..
وتركتنى نادية أنكلم وقد شعرت أنى أجد راحة فى الكلام ..
وتندت عيناها بالدموع ..

تثبت بوحدنى .. وأويت داخل نفسى وأحكمت الرتاج .. وأصبح
 عالمى جدراً نأ أربعة .. وشربطاً أسود من السماء بين ستاثرى الرمادية ..
 سقطت فى بئر الوحدة المظلم باختيارى ورفضت النجاة ، ومضت الأيام
 قديمة كدهور كاملة بلا أحداث .. فالأيام تتابع كصفحات بيضاء بدون كتابة ..
 والزمن يمضى ككل شيء .. الثوانى تتحول إلى دقائق .. والدقائق تنضخم
 إلى ساعات .. ثم يمضى يوم مثل الأمس .. ويأتى الغد .. ويتسرب عمرى
 من مفروق الزمن .. تعبت من العمر الذى ضاع .. ومن العمر الذى بقى فى
 دنيا أنا لست فيها شيئاً ..

لم يعد عند نادبة وقت تضييعه معى .. أخذ العمل كل وقتها وكل نشاطها ،
 حتى وقت فراغها كانت تستريح فيه ، أو إذا جاءت تحدثت عن العمل ..
 وجاءت نادبة فى يوم .. وقرأت خلال قلقها وتحركها من مكان لآخر
 شيئاً تريد قوله .. وأخيراً هدأت حركتها وقالت :
 نبجلاء عندى عمل لك .. معى فى الشركة ، سنكون معاً .. أظن ليس
 عندك عنر تعطلين به .. هيه .. مارأبك ؟
 ابتسمت لمرحها .. وحدثتها على حبها للحياة ولم أستطع إخفاء حسدى
 فقلت وأنا أتأمل حركاتها الراقصة الشوانة :

- نادية .. أتعرفين أنى أحسبك ؟
- ضحكت نادية وقالت بمرح
- جميل هذا .. معناه أنك فى طريقك إلى الشفاء .. ومادام فى مقدورك أن تحسدى الآن فغداً سيكون فى مقدورك أن تحبى .. هيه .. مارأيتك فى العمل ؟
- أجبت فى ضعف :
- أنت تعلمين أنهم لن يرضوا أن أعمل .
- ثم أردفت :
- لو أردت أنت لما كان لرفضهم قيمة ..
- لو أردت .. لو أردت .. أنا لا أريد شيئاً .. لاشئ له قيمة حقيقية عندى
- بل هناك أشياء لها قيمة عندك وأنت تحسدينى عليها ..
- ولكن أبى لن يوافق .
- بل سيوافق لو صممت أنت .. ثم إنه سألنى من يومين عن عملى .. وهنا عليه وعندما عرف باسم الشركة .. أضاف بأنها تتمتع بشهرة طيبة وقال أيضاً إن صاحبها ومديرها صديق له .
- وسكنت برهة ثم عادت تسأل :
- ماذا قلت ؟
- أجبت :
- سأحاول ..
- بل ستعملين معى .. ومن الآن ..
- دققت الجرس أطلب كويين من عصير الليمون أغير بهما طعم الحديث وراحت نادية تتكلم باستفاضة عن مدير الشركة وعن طريقة عمله .. وعن أدبه .. وأيضاً عن شكله المهيّب .. قلت لها فجأة :

— نادية .. أنت تحبينه ..

احمر وجهها كله ودافعت عن نفسها وكأن على رأسها « بطحة » :
— أنا ؟ أبداً ، أبداً .

قلت بإصرار :

— نادية أنا أعرفك عندما تحين شخصاً .. أنا لا أنسى حبك للراعبة (أنجيل)
سرحت نادبة بعينها :

— آه .. سور أنجيل .. كانت أيام ..

وشفت عيناها واخترقتني بنظرانها راجعة إلى الماضي ، مستعيدة هزات
الحب الأولى في قلبها وإن كانت هزات شاذة .. نادبة طول عمرها فواردة
العاطفة .. في سن المراهقة لم نجد أمامها سوى أن تحب امرأة من جنسها ..
كان الحب الطبيعي في نظر مجتمعا ونظر عائلتنا عيباً كبيراً .

انترعت نفسها من ذكرياتها .. ونظرت إلى طويلا وابتسمت في صراحة .
وقالت بالفرنسية وبلهجة كلها نشوة :
— نعم أعتقد أني أحبه ..

وفهمت لماذا قالتها بالفرنسية . كانت الكلمات الأجنبية تخفف من وقع
ومعنى الكلمات وتستر الواقع العاري بغلالة مهذبة .

قامت نادبة لتذهب وقمت معها أودعها . سلمت على وأخذت مني
وعداً بأن أكلم أبي في موضوع اشتغالي وأنا حائرة كيف أناقش فكرة أنا
لست مقتنعة بها كل الاقتناع .. لو رفض أبي لما وجدت في نفسي القدرة
على معارضته .

بعد الغداء دخلت إلى حجرة المكتب لأنتظر أبي حيث يتناول قهوته كالعادة . اقتربت من المكتبة أنظahr بالبحث عن كتاب أقرؤه وحتى أعطى لنفسي مهلة للتفكير .. فربما وجدت ثقب حنان في جمود أبي أدخل منه للحديث . سمعت وقع أقدامه الخفيفة تدخل الحجرة وتخطو فوق السجادة .. أشاع دخوله في حركاتي اضطراباً .. وبعث في قلبي خوفاً وهماً ثقيلاً .. ورأيت دون أن أنظر إليه يجلس في كرسيه المعتاد . وكما توقعت نشر الجريدة المسائية، وجلس يقرأ فيها دون أن يسألني أو يكلمني في أى شيء وكأنه ليس في الدنيا كلها أى حديث يمكن أن نشترك فيه نحن الاثنان .. وبعد لحظات طويلة سمعت أوراق الجريدة تطوى في يده .. وأملت أن يكون قد وجد الحديث المفقود بيننا .. فاستدريت بلهفة انظر إليه ولكنه قال :

— نجلاء أتريدين أن تقولي شيئاً ؟

قلت في خيبة وحيرة :

— لا يا أبي أنا أبحث عن كتاب أقرؤه ..

قال بنفس نبرات صوته الجافة :

— لم أكن أعلم أن لك اهتماماً بالقانون

قلت في دهشة .. بالقانون ؟!

- نعم بالقانون .. أنت واقفة منذ عشر دقائق أمام مراجع القانون .
وأردف في جفاف :
- هناك شيء تريد أن تقوليه .
- تراجعت منهزمة أمام كلماته .. ووقفت أعترف برغبتى فى العمل ..
وكأنى أعترف بخطأ كبير . قلت بدون مقدمات :
- أبى .. أريد أن أعمل .
قال بلا اهتمام ..
- تعملين ؟
ثم نظر إلى يتمعن ، وأكل :
- وماذا تريد أن تعمل ؟
قلت والرغبة تترايد فى صدرى :
- عند نادبة فى الشركة وظيفة جديدة .
وأردفت فى اضطراب :
- وسكون معاً أنا وهى .
ثم أضفت بصوت منخفض كأنى أكلم نفسى :
- وأنا أحس بفراغ .
نظر إلى ملياً وقال بسخرية :
- تعملين مثل نادبة بخمسة عشر جنيهاً ؟ كأجر مرغنى السائق ؟
وأكل بشيء من العطف :
- هل ينقصك المال ؟ لماذا لم تطلبى ؟
امتدت يده إلى المحفظة ، وأخرج أوراقاً مالية ..
انابتنى جرأة مفاجئة فربما استطعت الدخول من ثقب العطف الذى بدأ يفتح
أمامى ..

- أنا في حاجة للعمل وليس للمال .. إن الفراغ يقتلني ..
- تشعرين بفراغ .. لماذا لا تذهبين للنادي .. لماذا انقطعت عن صديقاتك؟
- عدت أقول .
- أنا أكره النادي منذ موت هشام في الملعب .
- قال كأنه وجد حلاً لكل مشكلاتي :
- إذن سافري عند جدك في العزبة . إن التغيير سيفيدك ومنظر الفلاحين وهم يعملون سيجعلك ترضين بحياتك السهلة الموسرة .
- قلت في إصرار جديد :
- ولكن يا أبي لماذا ترفض فكرة عمل ؟
- قال في نقاد صبر :
- لأن في ذلك نزولاً بمركزنا الاجتماعي .. لا أريدك أن تنسى ابنة من أنت ..
- وفهمت بصعوبة لماذا هنا نادية وأيد عملها .. لأنه يوافق أن تعمل نادية ابنة الرجل الآخر .. أما ابنته .. لا ..
- أعطاني فهمي حماسة مفاجئة .. فعدت أقول :
- ولكن يا أبي ..
- ولكنه قاطعني بقيامه فجأة واضعاً الأوراق المألبة بين يدي ، وخرج من الحجرة وأغلق الباب وراءه ، وبداخل أغلقت أبواباً عديدة واحداً بعد آخر .. وبقيت مع نفسي وحيدة ..
- انطويت على عزلتي .. وأصبحت لا أخرج من الفيلا تقريباً .. وازدادت هزلاً وبدأت تتأني الهواجس والأوهام وضخمت الوحدة كل شيء من حولي وأصبح وقتي ظلاماً لا أستطيع تبديده بسراج اهتماماتي الصغيرة ..
- وفي يوم دخلت أمي قائلة :
- سيوزرك الطبيب اليوم .

— طيب ؟

— سيأتى بعد نصف ساعة .. كوني مستعدة .

طيب ؟ لماذا ؟ أنا لا أحب أن ينظر إلى جسدى أحد وينقر عليه ويعبث فيه بأصابعه . حرارتى ليست مرتفعة ولست أشكو من شيء .. طيب ؟ لماذا ؟

ولكن بعد فترة وجدت نفسى أطيع الأمر ، فخلعت بيجامتى وتصادف مرورى بجانب المرأة . توقفت لحظة .. وأطلت تأمل الصورة المرتسمة أمام فى المرأة .

لقد أصبحت كالفاكهة المحفوظة .. نفس الأنف والعينين والقم ولكن بلا نكهة ، بلا حياة .

مشطت شعرى دون اهتمام وأنا أفكر .. أنا أتفكر وأتحرك .. أنا حية ولكنى لا أعرف (كيف) ولماذا ؟

بعد نصف ساعة دخلت أمى ووراءها طيب .. جلس قبالتى .. واخترقنى عيناه دون أن يرانى وهمس بضع كلمات وأمرنى بأن أفتح أزرار ثوبى .. وانسابت السماعه كالأفعى تتحسس جسدى .. ثم طلب منى الجلوس ثانياً وراح ينقر على ظهرى .. وأمرنى بأن أسعل .. وأقول آه .. ثم تركنى وقام يكتب تذكرة الدواء .. وغازطنى الطيب .. لقد كشف على كتلة من اللحم واعظم .. دون أن ينظر إلى عيني ليعرف أن روحى هى المريضة .. وليس هذا الجسد الذى أوسعه تعذيباً بالكشف عايه .

خرج وخرجت أمى معه .. وتركتنى وحيدة .. لم تهتم بأن تجلس معى لحظة أخرى .. أو تأخذ يدي بين يديها لتسأنى عما بى .. أو تطبع قبلة حنان على جبينى .

خرجت وتركني وحيدة .. لو مت غداً لما اهتم أحد لموتي .. خطواني
لن تترك أثراً وكأنني كنت أمشي على ماء .. أنا لا أعني شيئاً عند أحد .. مات
الشخص الوحيد الذي كانت حياتي عنده كل شيء ..
مات هشام أخي وحبيبي ..

وبعد ظهر اليوم التالى أخبرتنى أمى أننا سنستقبل زائراً فى المساء ...
وأضافت أنه كان صديقاً لهشام .. كدت أقاطعها لولا أن قالت أنه صديق
أخى ... أشاع كلامها بهجة حزينة فى قلبى .. الزائر كان صديقاً لأخى ،
إذن هو صديق لى أنا أيضاً ..

وجاء مع المساء ..

تبادلنا الحديث فى رد سريع .. للحظة خيل إلى أنى أكلم أخى .. إن به من
هشام الكثير .. شخصيته القوية .. نظراته النفاذة وكلامه الذى يصل به إلى
إلى هدفه سريعاً .

بعد قليل تركتنا أمى صاعدة إلى الدور العلوى .. وفى أثرها خرج أبى...
ودهشت وتوقفت لحظة عن مواصلة الحديث فليس هذا تصرفاً طبيعياً منهما
على الإطلاق .. ولكنه ما لبث أن عاود حديثه فبدد إحساسى بالغربة ..

شعرت أنه صديق حميم فتحدثت معه بصراحة .. تكلمت عن إحساسى
بالوحدة بعد موت هشام وعن رغبتى الهزيلة فى العمل .. تحدثنا كثيراً
باستفاضة .. وتحدث هو عن طفولة غير سعيدة .

وعندما سلم ليخرج .. أحسست أنى لن أراه بعد ذلك ونخيم على حزن
مفاجيء ، ولكن عندما استدار ليهبط السلم إلى الحديقة .. فكرت فجأة أنه جاء

في مهمة ما . ترى ماهي تلك المهمة التي جاء من أجلها ؟ وبسرعة لمح
برأسي خاطر كالبرق . إنه طيب نفساني .. وشعرت في الحال أنني جرحت
وأنتهم ضحكوا على .. وكيف كنت بهذا الغباء ؟ كيف سمحت لنفسى أن
أحكى له باستفاضة عن حزنى الجليل ؟ عن إحساساتى الصغيرة العزيرة ؟
كيف صدقت أنه صديق لهشام ؟ الكذاب . الكاذبون جميعاً .

لقد أهانونى جميعاً . أهانونى .

بعد بضعة أيام أقام أبى حفل عشاء .. كعشرات الحفلات التي كان يقيمها
قبل موت هشام والتي كانت قد ماتت بموته ..

ودعيت للتزول إلى الحفل .. وأثارت الدعوة دهشنى .. ماهذا الاهتمام
المفاجئ لى ؟ وما وراء تلك الدعوة ؟

في الماضى كنت لا أدعى للتزول ولم أكن أطلب ذلك .. كنت أفضل
الانزواء في أعلى السلم لأسترق السمع والنظر إلى الحفل في أسفل .

الضحكات الصاخبة .. وانفصال الرجال عن النساء في الحديث والجلسات
كان يثير في عقلتى تساؤلات . لماذا هذا الانفصال بين الجنسين .. أبى ليس
رجلاً رجعيّاً بل هو تقدمى ليس في رأسه أفكار الحريم .. وقد حيرنى إصرار
أمى على الخلوس مع السيدات وحدهن .. ومع توالى الحفلات الماضية
استطعت أن أفهم لماذا هذا الانفصال في الجلسات .. لأن هناك أيضاً انفصالا
بين العقليتين .. واختلافاً في التفكير .. وتصادماً في وجهات النظر ..

كنت ثوباً مموهاً باهتاً .. وتذكرت ملاحظة هشام عن تفضيلي للألوان

الباهتة :

— لماذا تحبّز الألوان الباهتة يا نانا ؟

— لأن ذلك يجعلنى غير مرئية قدر المستطاع .

فأنا لا أحب العيون الممدقة في .. ولا أستطيع أن أرد لها نظراتها .. إن
النظرات تثير في حركات اضطراباً .. وتبعث في رجفة .
وقفت لحظة أخرى أمام المرأة .. أنا ما زلت جميلة بل أزداد جمالا ..
رغم حزن روحي ..

أخيراً استجمعت شجاعتي ونزلت الدرجات إلى أسفل .. أثار نزولي
الحاضرين فاتجهت الأنظار كلها إلى .. وأطرقت أنا إلى الأرض وبدأ
الاضطراب يسود حركاتي .

تقدم أبي في تلك اللحظة .. أخذ يدي وراح يقدمني لأصدقائه .. ثم
توقف عن تقديمي لبقية الضيوف .. ونظر تجاه الباب .. وأرسلت نظراتي
تجبر وراءه كجرو ضعيف ورأيت يتجه إلى رجل طويل وسيم له بضع
شعيرات بيضاء تجمل فودية وتريده وسامة ومهابة .. خطا الرجل أيضاً
ناحيتنا وسلم أبي عليه بكلتا يديه وقدمه لي :

— طاهر (بك) مدير الشركة المتحدة للدعاية والنشر . نجلاء ابنتي .

هذا إذن صاحب الشركة التي تعمل بها نادية .. الآن أفهم لماذا أحبته ..
لأنه في سن أبيها الذي كانت تحبه كثيراً .

تحدث الرجل كثيراً عن العمل وتكلم خاصة عن نادية .. أثني عليها
وقال إنها فتاة ذكية وتعمل بتفان وإخلاص .. وأضاف :

كم أريد فتاة مثلها .. لأن العمل يزداد .

هذا معناه مزيد من المال .. ها .. الكثر يكبر ..

— كتر ؟ وهل تعلم عن هذه الصفة البغيضة ؟

غمز بعينه وأردف :

- أنت تعرف أين تذهب الكنوز .. وأنت طول غمرك محب للحمال .
 أمسك أبى بذرعه وقال فى الباقة ..
 — تعال ... عندى لك شرايك المفضل ..
 ومضيا معاً ونسيانى وبدأت أغرق فى بحر المدعوين لنصدمنى أمواج
 أحاديثهم .
 انزويت فى أحد الأركان وجاء عصام ابن خالتي ، وراح يثرثر معى دون
 اهتمام . وراحت عيناه تدوران فى الحجرة تبحثان عن شىء آخر يثير
 الاهتمام .
 اتجهت شريفة أخته ناحيتنا .. سلمت على بحنان .. وراح عصام يسألها
 عن حملها الجديد .. وماذا تمنى أن يكون مولودها .. وقفت حائرة لا أجد
 كلمة أقولها مع أنه موضوع نسائى بحث .. حتى مع شريفة لا أجد ما أقوله
 لها والحديث مفتوح وأى كلمة سأقولها سنسمعها باهتمام .. ولو كانت كلمتى
 سخيفة .. ولكننى لم أتكلم .. ووقفت بينهما حائرة ضائعة .. أين دنيائى ؟
 انتشلتنى صوت أبى من غرقى ..
 — ماذا تفعلين يا نجلاء .. كفى حديثاً مع عصام وشريفة .. وتعالى معى
 قليلاً ..
 أخلتنى من يدى ومشى بى راجعاً إلى طاهر ..
 — ما رأيك فى نجلاء يا طاهر ؟
 لماذا يفعل بى أبى هذا ؟ لماذا يضعنى فى هذا الموقف السخيف ؟ ماذا
 سيقول ؟ الرجل سيجاملنى طبعاً ؟ وأنا أكره هذا التفاف .
 — فيها من نادية الكثير .. ليس شبةاً .. لكن روحاً ..
 غريب .. ظننت هذا الناشر النصف المتعلم لا يجيد الكلام .. ولكنه قال

شيئاً حقيقياً .. حقيقياً جداً .. ثم توقف عن متابعة حديثه ونظر إلى نظرة نفاذة
واستدار محدثاً أبي عن فكرة طرأت على رأسه فجأة ..
— ما رأيك يا عبد الله أن تعمل نجلاء معي ؟ ستكون في عيوني ، أنت تعلم ..
نظر أبي إلى وقال بدهشة ..
— ماذا تقول يا طاهر .. نجلاء تعمل ؟
ولكني أحست أن دهشة أبي ليست حقيقية .
وقاطعه طاهر ..
أتبخل بها أن تعمل معي ؟ قل لي ماذا تفعل بكل وقت فراغها ؟ تذهب
إلى النادي ؟ تخرج مع صديقاتها ؟ وبعد . العمل ليس عيباً .. المستقبل للعمل
ثم إنها ستكون مع نادبة صديقتها ..
قطع طاهر حديثه فجأة ونظر إلى باستغراب وقال :
— لماذا أنت صامته يا نجلاء .. تكلمي قولي رأيك ..
ابتسمت ولم أقل شيئاً .. وحلالي أن أرقب اللعبة التي يلعبها الاثنان أمانى .
قال أبي وقد استسلم للحصار الوهمي من كليتنا ..
— انفقتم على .. ماذا أقول ؟ .. موافق ..
ولبثت برهة أفكر .. أبي لا يوافق بهذه السرعة وخاصة على أمر رفضه
من قبل .. إن الموضوع يبدو مدبراً بين طاهر (بك) وأبي .. وهذه الحفلة
لم تقم إلا لكي تأتي موافقة أبي عابرة وعادية .. وحتى لا يبدو أنه نزل عن
كبريائه .. ولكن لماذا لم يختر لي عملاً آخر ؟ ربما كان الطبيب النفساني هو الذي
أشار عليه بذلك .. ربما أراد أن أكون مع نادبة وفي شركة مديرها صديقه .

أيقظتني فرحتي بالعمل مبكراً في المجر .. فوقفت أرقب الطبيعة في جمال
 عبرها المستمر .. تلاشي ظلام الليل في نور المجر رويداً .. وارتحلت خطواته
 السوداء تدريجياً تاركة الضباب يغطي المكان ويعطي لطبيعة ألوانها وأبعادها
 الحقيقية ويعيد للأشياء ظلالها .. واهتزت شجرة الشمس أمام القبلا ..
 وتلاّث ثوب الندى بمأساته المنشورة عليها . وغردت حمامة وانطلقت روحى
 تغرد معها .

هذا أنا أيضاً أنغير .. واليوم ليس قديماً كأمسى الماضى . إنه جديد
 وطفل .

ومر الوقت يقربني من موعدى للذهاب لمقابلة طاهر (بك) ولكن داخلني
 شعور غامض بالضيق والتردد .. والخوف .. أنا لا أريد أن أذهب .. سأظل
 هنا في حجرتي الصغيرة أنظر إلى العالم الخارجى الكبير من وراء ستائر حجرتي
 الرمادية أسدأ وأشدها وقتما أريد . وماذا عن موعدى مع طاهر (بك) ..
 سأذهب فقط لأعتذر له .. دققت الجرس أطلب الشاى .. وفتحت الدولاب
 لأرى ما عساي أن ألبسه ، وأنا ذاهبة للعمل .. هل أرتدى جوب وبلوز أم
 فستاناً كاملاً ؟ هل أنتعل حذاء واطناً أم بكعب عال ؟ هل أنثر البودرة على
 وجهى . أم أتركه طبيعياً ؟

ترى هل كان هشام سيوافق على فكرة العمل ؟ .. نظرت إلى صورته على
الكمبيوتر بجوار فراشي أسأله بنظراتي عما يجيش برأسي من أفكار .. ولكنه
ظل ينظر إلى نظرتة الواحدة المبتسمة دون أن يعطيني جواباً .. إنه يتخلى عني
ويتركني ضائعة لا أجد من أستشير .. رفعت عيني إلى إطار الصورة وتذكرت
ملاحظة نادية .

— نجلاء يجب أن تمنح نفسك فرصة لنسيانه لنستطيعي أن ترجعي للحياة ..
لم أجب على كلماتها .. ولكن وضعي لصورته أمامي كان يمني تراجع
المستمر في ذاكرتي .. فقد راحت الأيام تطمس صورته تدريجياً من خيالي
على الرغم مني .. وكنت محتاجة لصورته ليظل رسمه واضحاً أمامي لا يطمسه
ضباب النسيان .

دقت الساعة معلنة التاسعة .. فليست جوب وبلوز وانتعلت حذاء بكعب
متوسط وأمسكت بحقيبة كبيرة نوعاً .. وظهرت في المرأة أكثر شحوباً ..
وقامني القصيرة أطول مما هي في الحقيقة .. وفي طريقي إلى الخارج مررت
على أمي وقلت لها :
— ربما سأعمل اليوم يا ماما .

نظرت إلى أمي ولففت قرص التليفون الذي كان بين يديها ولم يد عليها
أنها سمعتني ثم سألت ..
ماذا كنت تقولين ؟
قلت :

— لا شيء مهم .
إنها لا تهتم بي .. أعمل أولاً أعمل .. مسائل لا تعنيها .. وكأني دائماً في
مكان الخطأ .. أو أتي الشخص الخطأ وأن هناك شخصاً آخر كانت تتمناه

بدلاً منى ... كان يخيل لى أحياناً أنى جئت إلى الدنيا دون إرادتها .. وأنها كانت تتوقع مولوداً ذكراً فى مكانى .. يامنى .. ولكنى ابتتها ..

لم يكن لى ملاذ غير نفسى .. الكل كانوا غرباء .. وأنا أحاول عبثاً أن أكون على وفاق مع هذه النفس الجموح بداخلى .

نزلت درجات السلم بسرعة إلى الحديقة ووجدت السيارة فى انتظارى ، فتح لى مرغى الباب فألقيت نفسى بها وأنا أرد بتحية الصباح .

مرقت العربة سريعاً فى شوارع الضاحية ثم عبرت الكوبرى إلى المدينة .. همست للسائق باسم الشارع ، بعد دقائق طويلة أصبحت هناك .. أمام مبنى جامد الملامح متعال لم يبادلنى ابتسام قابى .. ولم يرحب بمعرفتى .. دخلت المصعد المزدحم وألقيت بعينى إلى الأرض .. فلم أستطع أن أرد للعيون نظراتها .. وخيل لى أن الكل يستغرب وجودى ويسخر من وقفى بينهم .

توقفت خيالانى بتوقف المصعد فى الدور الخامس .. وخرجت من المصعد وخطوت إلى مدخل مكتوب عليه اسم الشركة بأنوار النيون الصغيرة .. وقفت فى المدخل حائرة أبحث عن نادبة .. ثم اكتشفت بعد لحظة أنى أعوق الداخلين والخارجين بوقفى فدلقت من أحد الممرات وسألت أحد السعاة عن نادبة وأنا أخشى أن أكون قد أخطأت المكان كله .. وما لبث أن قادنى إليها فى حجرة صغيرة ملحقة بالغرفة الرئيسية للمدير .. استقبلتنى بالأحضان . جلست على أول كرسي ألمم شتات نفسى .. وقالت نادبة فى إشفاق :

— الأوتوبيس مزدحم ؟

وقبل أن أجيبها سارعت مستدركة :

— نسيت أنك لا تركبين الأوتوبيس .

وابتسمت ولم أقل لها إن هذا التوتربعته مجرد صعودى فى المصعد المزدحم.
قلت لها بسرعة قبل أن أغير قرارى :

— نادية جئت لأعتمد لطاهر (بك) عن العمل .

قالت نادية فى غضب :

— إياك أن تفعل ذلك ..

وأضافت بغيظ :

— كنى جبناً ..

وفى تلك اللحظة دخل طاهر (بك) إلى الحجرة وانتمعت فى تلك
اللحظة فرحة كبرى فى عيني نادية وخطا هو إلى ماذا كلتا يديه فى ترحاب
كبير .. واخترقنى عيناه دون أن يراى .. وسألنى عن الذى فى تودد ..
ثم نظر إلى نادية وقال :

— نجلاء صديقتك من أيام المدرسة .. أليس كذلك ؟

قالت نادية فى تأكيد ..

— نجلاء أكثر من صديقة .. إنها ..

رحت أسمع نادية وهى تشرح صداقتنا فى كلمات .. وبدأت بعيدة عني
فى تلك اللحظة .. فليست تلك الصفات هى التى تكون هيكل صداقتنا ..
ولكننا دائماً عندما نريد أن نترجم العواطف إلى كلمات فإننا نسلبها الكثير
من أعماقها .. نعم إن ما بينى وبين نادية مما لا يمكن وصفه هكذا فى سهولة.
سمعت طاهر بك يضيف إلى كلمات نادية ..

— هذا جميل جداً .. ستملان سوياً .. وأرجو أن أرى نشاطاً كبيراً من
حجرتكما الصغيرة هذه .

ومضى ببساطة إلى الخارج وكان هذا معناه أنه افترض قبولي العمل افتراضاً قاطعاً ..

وضايقني هذا الافتراض .. وهممت بفتح فمي لأتكلم .. ولكنه كان قد اختفى ..

وضايقني هذا الافتراض .. وهممت بفتح فمي لأتكلم .. ولكنه كان قد اختفى .. قالت نادبة في ثقة ..

— سنعمل معاً أنا وأنت هنا في هذه الحجرة .. ولكن يجب أن تتعلمي الآلة الكاتبة .. وسنترجم الخطابات معاً ..

وراحت تتكلم وتتكلم .. وداهمني أنا هلع من كلماتها .. وخيل إلى أني سأحمل مسؤولية الشركة كلها على رأسي .. وشعرت أني أنضائل وأنضائل ولا أجد الثقة في نفسي على تحمل المسؤولية .. وشككت في لغتي الفرنسية . وخيل إلى أني نسبتها .. أو أني لم أتعلمها على الإطلاق .. هممت أن أبدأ كلاماً أفهمها به أني لأستطيع العمل .. ولكنها استدارت وجلست على مكتبها الصغير .. وراحت تفتح الخطابات غير مصفية لكلماتي وناولتني واحداً منها وهي تقول في سخرية ..

— هيا ترجمي هذا الخطاب .. وأريني أنك لم تنسى الفرنسية التي تعلمتها .. أمسكت بالخطاب وجرت عيناى على الحروف الفرنسية وعمل عقلي بسرعة .. وبدأت أقرؤه لها مترجماً .. ولكنها قالت في شيء من الجحد .. — خذي ورقة وقلماً واكتبي كلمة كلمة ..

أخذت ورقة وقلماً ورحت أكتب وأكتب .. وانتهى الخطاب فنا ولتني آخر .. ثم رحنا نرتب بعض الدوسيهات في أدراجها المرقومة .. وأخذتني دوامة العمل في رحاها . ولم أفق إلا على نادبة وهي تقول :

- هيا بنا يا عزيزتى .. هل أعجبك العمل إلى تلك الدرجة ؟ . الساعة الآن الواحدة ميعاد الانصراف.
- كيف مضى كل هذا الوقت ؟ الوقت عندى كان مشكلة لا أجد لها حلا .. انتابتنى فرحة وجرأة مفاجئة فقلت لها ..
- نادية سأعمل معك .. ولكن يجب أن تقرئى كل ترجمة أكتبها .. أنا غير مسئولة عن أى خطأ ..
- نظرت إلى نادية بفهم وعطف .. وارتسمت ابتسامة كبيرة حنون على شفتيها أشعرتنى بالأمان والثقة وقالت :
- لا تخافى ستجدين العمل مالياً .. وسهلاً ..
- رجعت إلى الفيلا وأنا أشعر أن الدماء التى تجري فى عروقى أصبحت فجأة دماء شابة مليئة بالحياة والعمل ..
- وتناولت غدائى بشهية وحكىة لأبى عن العمل فغمغم بيضع كلمات باردة أطفأت فرحتى المشتعلة فى قلبى فعولت نظراتى إلى أمى .. ولكنى وجدتها مستغرقة فى تفكير بعيد كل البعد عن حديثى .. لم أجد أحداً أحدثه عن فرحتى . فأويت إلى حجرتى ونمت نوماً عميقاً خالياً لأول مرة من الأحلام المزعجة ..
- ذهبت فى اليوم التالى إلى معهد لتعلم الآلة الكاتبة .. ثم إلى الشركة وهذه المرة لم أشعر بذلك الشعور الصياني الذى أحسسته أول مرة فى المصعد .. اضطرم فى قلبى شعور عميق بممارسة تجربة جديدة هى الحرية .. حرية اختيار عمل .. وحرية تعلم شئ جديد .. وحرية شق طريق جديد ..
- وفى حجرتى الصغيرة مع نادية جلست أرتب بعض الأوراق بإرشادها عندما قالت :

— المرتب سيكون صغيراً يا نجلاء خمسة عشر جنيهاً فقط ولكنه رقم مبدئي ..
وطبعاً سيرتفع بمرور الوقت .
قلت لها :

— ولكن يا نادية ما قيمة المال .. انت تعرفين أني لا أهتم به ..
شعرت في الحال أني أخطأت لأن عيني نادية أظلمت .. وقرأت في
ظلامهما مقارنة سريعة بيننا ، هي تعمل من أجل المال وأنا أعمل لمجرد شغل
وقت فراغي .. فهمت من صمتها أنها جرحت ولكني لم أدر ماذا قول
لأصلح هذا الخطأ الذي لم أقصده .

ومع هذا فقد فرحت فرحة كبرى لم أكن أتوقعها يوم أخذت أول
مرتب لي .. نعم إن للنقود قيمة كبرى لم أحسها إلا عندما أخذتها ثمرة عمل
وتعبى ..

أصبح نزولى إلى العمل كل صباح يمدنى بتجارب جديدة .. الخروج إلى البلد ، وقفنى أمام المحلات .. مشاهدنى لوجوه الناس وهم يسرعون كل فى طريقه .. تساؤلى عما يمكن أن تكون مشكلة كل شخص من هؤلاء الناس الذين أراهم لأول وآخر مرة ثم يتلاشون فى الرحام .. لحظات الانبهار أمام الواجهات التى تعرض أثواباً نسائية وأحذية ملونة .. خروجى كل صباح فرحة .

كنت أشعر أنى أصبحت شيئاً مهماً .

ومضت الأيام بسرعة .. ثم تباطأت تدريجياً .. وأخيراً أصبحت نجر بعضها بعضاً .. وكان هذا معناه أن العمل الذى أحبيته أول الأمر أصبح مللاً يومياً أساق إليه كل صباح ..

فتحت باب المكتب ودخلت .. وتركته يذهب ويجيء نتيجة دفعة بدى .. وخطوت إلى حجرة العمل .. وما زالت أصداء حركة الباب تثبت أنى مررت من هناك منذ لحظات . آه لو استطعت أن أكون موجودة بشخصى وبكل انفعالى فى عملى دواماً ، إذن لما شعرت بهذا الملل .. ولكن ها أنا .. وحائى أصبح كحال بقرة تدور فى ساقية .. يمكن لأى بقرة أخرى أن تحمل محلها .. لم أعد شيئاً مهماً .

مر الشتاء على الكون كله ، وبدأت شجرة المشمش في الحديقة تفقد أوراقها ، وبدأت جفوعها العارية باردة مرتعدة في حاجة إلى دفء الحضرة وحرارة الثمر وكانت بي رعدة مثل ما بها .. وأصبح دخول الفيلا يزيد إحساسى بوحدتى .. ويشير حنى لأيام هشام .. فأروح أتذكره من جديد حياً يبعث المرح فى كل المترل ، ولكن صورته كانت تشعب وذكرياته تبهت وحنينى له يتساقط كأوراق الخريف فى زوايا النسيان .

يا لى .. كل شىء يتبدل ، كل شىء يتغير . كل شىء يضع .. أيام عمرى تسفل واحداً وراء الآخر .. مختلفة أجمل سنى عمرى .. ويدأى - تشبثان عبثاً بلحظات السعادة الماضية ولا سعادة هناك ..

لماذا يجب على كل شىء أن يذبل .. ؟

لماذا لا تورق السعادة إلا لتعطينى ؟ .

ولماذا يجب علينا أن نموت ؟ .

تسل ضوء النهار من فتحة الشيش المواربة .. وخطا ببطء داخل الحجرة وترك آثار أقدامه الواضحة على مخمل الظلام .. وتلفت يتجسس على ففصت أنا بين وسائد الفراش .. كنت أكره النهار .. لأنه عيون وعيون تلمص .. أما الليل فهو غطاء وخصوصية ..

احتجبت الشمس وراء ستائر السحاب .. وانسدلت غيوم كثيرة ..
وتسربت حتى إلى نفسي فصبقتها بالانقباض .

انترعت نفسي من سكون النوم إلى الحركة .. قمت أتمشى في الحجرة
ووقفت بجوار النافذة أنفض ضيق نفسي إلى الشارع .. وجلست بجانبها أنصفح
كتاب الحياة المنشور أمامي .. وقلبي ثقیل .. كل شيء قديم في عيني ..
اناس أوراق صفراء مبتلة ملاعهم وأغلفة ثيابهم لا تحركني .. أحس أنني
سجينة هذا الأسلوب في الحياة ..

إنی أنشد آفاقاً جديدة . أريد انتراع نفس اللاصقة في صمغ البيئة والخروج
بها إلى دنيا أوسع وأكبر . لقد مللت مساوات بلادى الصافية . أريد مساوات
أخرى قائمة غامضة ووعوداً تثير في الخوف والدهشة . أريد لقلمي أن تعرف
أرضاً مختلفة . ماذا لو سافرت إلى (نهي) في إنجلترا لأمضى بعض الوقت هناك؟
ولكنى سأرجع ثانياً .. وأنا أريد أن أذهب فلا أعود ..

ركبت العربة إلى الشركة .. فتحت الباب ودخلت .. الحجرة خالية ..
لم تأت نادية بعد .. جلست على المكتب وأغمضت عيني ووضعت سبابتي
على أجفاني وضغطت ضغطاً خفيفاً فبدأ يتولد عالم من الألوان والظلال ..
عالم سحري جميل .

ومضى الوقت .. وأحسست فجأة أنى مراقبة .. وأن عيناً ما في الحجرة
ترقبني فتحت عيني فاصطدمتا بعينين تعيستين تنظران إلى .. بل هما أكثر
من مجرد عينين . إنهما عالم كامل يحكى قصة حزينة .. ولأول مرة أدركت
أن الحزن يمكن أن يكون شعوراً مارداً لا شعوراً خائفاً مستكيناً ،
فالحزن بعينه كان يضطرم أمامى بالتحدى والتمرد والتحفز وكأنه في حالة
دفاع دائم عن نفسه من مجهول يمكن أن يظهر في أى لحظة ليسلب منه

روحه .. تعلقت عيناى بعينه ولم أستطع سحب نظراتى منهما .. تساءلت ..
هل هناك أحد يمكن أن يحزن أكثر مما حزنت أنا .. ؟

بدأ لى لأول مرة حزنى كأنه لحظة غاضت فيها ابتسامة السعادة لحظة ثم
ظهرت ثانياً .. أما الحزن فى عينيه فهو مدفون فى روحه .. مثقل بالثمار
المررة .. بالقلق .. بالشك .. بالسخرية .. أحسست بشعور عجيب كأن خيطاً
غير مرئى من الود ربط بيننا .. دارت تلك الأفكار بسرعة فى خاطرى ووجدته
قد قام من مكانه واقترب منى .. وكأن شيئاً قد شده إلى .. سأل .
— هل سيتأخر المدير ؟

قلت وعيناى معلقتان بعينه :

— لا ..

استدار ينظر من النافذة .. ودست عيني فى بعض الأوراق أمامى . ولم
أرفعها ثانياً وإن كنت قد أحسست أنه عاد ينظر إلى من جديد .

دخل المدير بعد لحظات بوضائى المعتادة تصحبه نادية وحسين الساعى
حاملين بعض الأوراق .. ألقى إلى بتحية الصباح دون أن ينظر إلى .. وقد وقع
نظره على الزائر .. ارتسمت ابتسامة كبيرة مزيفة على وجهه ومد يديه
مصافحاً ..

— أحمد .. أهلاً .. أهلاً .. أين أنت يا رجل ؟

همس الرجل بضع كلمات لم أسمعها .. وقاده طاهر (بك) إلى مكتبه
وأقفل الباب وراءه .. الرجل إذن كاتب وقد جاء ينشر شيئاً من إنتاجه عندنا .
أفقت من شرودى فوجدت عيني سارحتين فى وجه نادية . وخيل إلى أن
نادية تغمز بعينيها عندما خرج أحمد من حجرة المدير مرة أخرى .. شعرت
به يبحث عني . ولكنى دست وجهى فى كومة الأوراق أمامى ، وقد جئنت

وتغلب على ضمئى .. ولكنى حينما شعرت به يقترب من الباب رفعت وجهى
فطالعتنى ابتسامة .. كان يتسم بكل وجهه فى تلك اللحظة حتى عيناه الحزيتان
ابتسمتا لى من خلال بكائهما الدائم بغير دموع .

وعندما رجعت إلى الفيلا فى ذلك اليوم .. صعدت رأساً إلى حجرة هشام
وطوقت صورته لأؤكد له أنى لم أنه ..

فتحت عيني في الصباح على يوم جديد قديم .. سادق الجرس الآن أطلب
إفطاري ثم ألبس وأخرج بالعربة إلى الشركة .. ككل يوم .. ككل يوم ..
ولكن ربما جاء هذا الكاتب الحزين .. ولكن ما شأني أنا به .. ولماذا
أضعه في روتين حياتي كشيء جديد مهم .. والمكتب يمتلئ كل يوم بعشرات
الرجال مثله ..

تركت هذا الخاطر مهما في زوايا فكري .. وعاد يراودني ذلك السؤال
الخالد عن أبي وأمي .. للمرة الألف تساءلت لماذا لا يهتمان بي ؟ . ترى هل
يريداني حقاً وهل يعلمان أنني أقوم معهما في نفس القبلا .. لا أظن .. وهل
حقيقة أنهما كانا ينتظران مولوداً ذكراً .. في ذلك اليوم السعيد التمس ..
يوم أن جئت إلى الدنيا ؟ لكم تخيت لهذه الأفكار أن يفرقها طوفان ..

ولكنها كانت تعش في رأسي .. وكانت تتوالد ..

دخلت الحمام الملحق بمحجرتي .. اقتربت من المرأة العريضة على الحائط
وتأملت وجهي برهة .. ذلك الأنف الدقيق والشفتان الرقيقتان .. والعينان
الواسعتان الحلوتان والصدر الناهد .. والخصر النحيل .. والساقان ..

لكم أكره ذلك الجسد الجميل .. وأخجل منه .. إن أنوثته الفاترة

تعلن عن نفسها دون أن تأخذ رأيي .. وفي الشارع أسمع كلمات الاشتهااء
تترامى حولي وأتمنى لو انشقت الأرض وابتلعتني .. إن هذه الكلمات البذيئة
تفزعني وتشعرنى أنى شيء أقرب للخراف المعلقة من ذيلها تغرى بالأكل ..
استلذت عن المرأة حتى لا أهشمها .. وخطوت داخل البانيو وفتحت
الدش . وتركته يغمر جدى ورأسي بدفء الماء المنساب في رذاذ من الفتحات
الصغيرة ، وكأني أحاول أن أغسل جدى من هذه الكلمات .. لففت نفسي
في البرنس وخرجت إلى حجرتي .. ارتديت ثيابي ووضعت معطفاً على كتفي
ونزلت إلى الحديقة ..

تلفت أبحث عن زهرة أنظر إليها .. فلم أجده .. ولا وردة واحدة ..
أين ذهب الأزهار التي كانت لا تخلو منها حديقتنا على مدار السنة ..
هناك فقط في طرف الحديقة نبسم لى أفحوانة صغيرة عن خجل ..
وركبت العربة إلى الشركة ..
كانت نادبة مشغولة بترتيب بعض الأوراق بين يديها وقالت عندما
وأتنى :

— سأغيب نصف ساعة يا نجلاء .. سأنزل إلى المطبعة .. أبحث عن بعض
الملازم يريد طاهر أن يطلع على بروقاتها ..
قلت :

— ولكن هذا ليس عملك يا نادبة ..
وأضفت بشيء من السخرية ..
— أخشى أن أجذك غداً أمام ماكينات اللينوثيب .
ردت بجد ..
— أنا أحب أن أعرف كل شيء في الشركة ..

كانت نادبة مدلحة في حب طاهر (بك) الطويل الوسيم المزيف .. وفي
شركته .. وفي كل ما يعمله .. وكنت أنا أرى الزيف في كل حركة من حركات
هذا الرجل .. في ابتسامته .. في كلماته .. كنت أراه يستعرض وجوده أمام
الجميع ، ويتحرك وكأنه يمثل ..

تركنتي نادبة وخرجت .. وأرسلت أنا عيني تنجولان في الحجرة ..
وتركتهما تستقران على الدولاب المعدني في جانبها .. الأثاث كله معدني ..
أجزاءه تنحرف في صرامة عمودية .. ليس به رقة الخشب وانسيابه وثنياته
ومروته .. لم أكن أحب هذا الأثاث المعدني ..

فتح الباب .. فانقطع تسلسل تفكيري .. رفعت عيني فوجدت أحمد
واقفاً أمامي .. همس بتحية الصباح وسأل عن طاهر (بك) .. ثم جلس ..
انتابنتي فجأة موجة من العطس .. فأخرجت المنديل بسرعة ووضعت
على أنفي .. ولا بد أن منظرى كان يدعو للضحك لأنه ابتسم .. وشدت ابتسامته
ابتسامتي فضحكت وقال هو :

— يلزمك فيتامين (ج) .

قلت :

لم أصب بالبرد سوى هذا الصباح فقد استحممت وخرجت ..
استغربت نفسي لماذا أحكى له عن سبب بردي .. هذه أول مرة أتحدث
فيها ببساطة إلى شخص غريب ..

مرت لحظات صمت طويلة .. وخيل إلى أنه يبحث عن كلمات يدخل
منها الحديث معي .. أخيراً وجد الكلمات ..

— هل تحبين القراءة ؟

أجبت دون أن أفكر :

نعم .

ارتسمت فرحة على وجهه وعاد يسأل :

— ما هي الكتب التي نحب أن نقرأها ؟

صمت .. حيرني سؤاله .. فعاد يقول :

— هل تفرئين كتباً على الإطلاق ؟

قلت في حيرة متزايدة ..

— في الأيام الأخيرة لم أقرأ كتباً .. ولكني أقرأ بعض المجلات والصحف.

أحسست أنه صدم .. ولكن الأمل عاوده مرة أخرى فقال :

— ماذا إذن تفرئين في الصحف ؟

عدت أقول في خجل :

— في الحقيقة لم أكن أقرأ في المدة الأخيرة ..

ضج بالضحك فجأة وقال في مرح :

— اعترف أنك لا تفرئين على الإطلاق .

أصابتنى عدوى مرحه فقلت :

— أعترف أنني لم أقرأ في المدة الأخيرة . ولكن ليس معنى هذا أنني لأحب القراءة

ابتسم ونظر إلى من جديد . وأحسست أن لعينيه الحزبتين أيد تتحسس

وجهي برقة وكان لحنهما سحر ورهبة ..

فتشت أبحث في رأسي عن شيء يرفع من قيمتي أمامه .. وتذكرت أنني

أرسم فقلت على الفور .

— أنا أرسم

شعرت في الحال أنني أنخذ من نفسي موقف هشام .. مرقف الأصغر وأني

أنتظر الآن أن يربت على رأسي مشجعاً .. خجلت من نفسي كما لم أخجل طول

- حياتي ، وثمنت لو أختني من أمامه ، ورد هو في ود ..
- حقاً هذا جميل .. إذن أنت تقرئين معارض كثيرة ؟ أقصد تشاهدين معارض كثيرة ..
- عدت أهرز رأسي نفياً ..
- قال فجأة بدهشة وبجراحة :
- قولي لي .. ماذا تفعلين بكل ساعات عمرك ؟
- أنا أعمل ..
- فقط ..
- نعم .
- أنت لا تعيشين ..
- أنا لأحب الحياة .
- كيف ؟
- أنا مضطرة فقط لأن أحيا .
- مضطرة ؟
- لقد وجدت في الدنيا .. فأنا مضطرة للحياة ..
- أنت غريبة .. كل هذا الجمال والثقافة وتكرهين الحياة ؟
- ماذا رأيت أنت من الدنيا لتكرهها ؟ ماذا رأيت ؟
- ظللت أنظر إليه في دهشة وقال هو بعد لحظة :
- أنا آسف .
- لماذا تأسف ؟

— لأنى خرجت عن شعورى..

— أنا الآسفة لأنى أخرجتك عن شعورك..

— لنس ذلك ..

نظر إلى ساعته وقال يداوى ثورته واضطرابه ..

— عندى موعد هام فى الجريدة يجب أن أذهب .. هل أستطيع أن أترك أصول

قصتى عندك لحين حضور طاهر (بك) ؟

— طبعاً تستطيع..

— شكراً ..

ومضى سريعاً إلى الباب .. واختفى بين ضلعتيه .. وتمنيت لو لم يذهب ..

ولو استمر فى الحديث معى إلى مالا نهاية .. إن فى كلامه صدقاً وصرامة ..

إنه شخص حقيقى غير مزيف .. داهمنى هلع مفاجئ ألا أراه ثانياً .. فهو لم

يقل منى سيأتى ..

دخلت نادية إلى الحجرة وشئ من الحزن فى ملامحها .. قالت فى كلمات

تقطعة :

— طاهر تكلم فى التليفون .. لن يأتى .. سيأفر إلى الاسكندرية لبعض

الأعمال ..

وبقيت أصول القصة معى ... وسهرت الليل معه .. مع كلماته .. إنه

يعبر عن حبه للعنفا بصورة غريبة .. كأنه يكرها .. إن بين كلماته اتهاماً ..

وأصابع تشير إلى أخطاء عديدة بتصميم ساخر عنيد .. والخوف من الموت

يبرز عن خلال سطورہ .. ويبسط سيطرته على الكلمة .. إن فى كلماته ثورة

مسترة .. وهو يعبر عن كآبة .. وتعاسة مقبمة فى نفسه .. وبدأت لأول

مرة أفكر بدون أنانية في شخص آخر غير ذاتي .. وأحسست أنني أريد أن أفعل شيئاً من أجله ..

مع أخى كنت أتخذ موقف الأصغر .. الذى يتظر حناناً واهتماماً دائماً ..
كنت آخذ دون أن أعطى .. ولكنى الآن أريد أن أعطى .. أريد أن أمد
كلتا يدي لأخرج هذا الرجل من كهف تعاسته .. وكان هذا شعوراً جديداً
على كل الجدة .

في الصباح صحوت نشطة مرحة .. لأنني سأراه .. سيأتي لمقابلة طاهر ،
وفي نزولي الدرجات إلى الحديقة .. وفي ركوبى العربى إلى الشركة كانت بينى
لهفة لرؤيته وسماع صوته ..

وفي حجرة العمل ظللت أنتظر .. وأنتظر دون جدوى .. مر الوقت
يقرب من الظهيرة دون أن يحضر .. وأخيراً لم أجد بداً من القيام والدخول
إلى حجرة طاهر لأعطيه القصة ..
سألنى ..

— هل قرأت القصة يا نجلاء .. ما رأيك فيها ؟

— تخيم على كتاباته الكآبة ويبدو وكأنه يتهم ..
ولم ينتظر بقية كلامى .. سارع يقول :

— نحن نحب أن نرى الآخرين متهمين لنهون جريرة الأخطاء على أنفسنا
أحسست أنه فهم خطأ ما أراده أحمد .. إن أحمد يهدم لبنى لا ليهون
الخطايا أمام الآخرين ..
أردف طاهر ..

— إنه كاتب متميز لا يمكن تجاهله .. إنه يخطف البصر .. ويشير فيك التحدى .

انت إما معه أو ضده .. ولكنك لا تستطيعين أن تتجاهليه .. أوتقولى
لا بأس به .. عموماً كتبه تأتى بإبرادات كبيرة ..
ويبدو أن دهشة بالغة ارتسمت على ملامحي فقد أسرع طاهر بقول :
- هذا ليس كلامي .. هذا كلامي النقاد .. كل الذى يهمنى أنا الإبراد ..
كانت الساعة القاسية وراء طاهر تعدو ولا تترك فسحة من الوقت كى يأتى فيها
أحمد ..
رخص وقتى فجأة .. وأصبح وقتاً عادياً .. واكتشفت أن انتظارى
لأحمد هو الذى كان يقيم زمنى ويعطيه قيمته ومعناه ..
صرفت تفكيرى فى أحمد عن الرد على كلام طاهر . تركته وخرجت
إلى حجرتى ، ورغم اليأس من حضوره فقد جلست أنتظر من جديد بأمل ..

مضى يوم .. وآخر دون أن يأتى .. وفكرت أن أسأل نادبة عما جرى
 بشأن الكتاب .. ولكنى خفت أن تلاحظ اهتمامى .. وشعرت أن شيئاً حميماً
 وخصوصاً جداً بدأ يربطنى بأحمد .. شيئاً لا أريد أن أقوله لأى إنسان ..
 ولا لنادية صديقتى الوحيدة ..

وفى يوم بادرتهى هى قائلة .. من باب سرد أخبار المكتب ..

— كتاب أحمد إبراهيم سينزل المطبعة غدا ..

سألته بوجل ..

— هل اتفقا نهائياً ؟

— لقد اتفقا تليفونياً على كل شيء ..

تليفونياً .. لماذا .. ؟ لماذا لم يأت هو بنفسه ؟ هل قلت كلمة ضابقتها هل
 بدر منى شيء أساءه ؟ ولكن لنفرض ذلك هل كان سينقطع عن مباشرة
 طباعة كتابه من أجل ؟ .. لا .. لا بد أن شيئاً ما شغله ..

ومضيت أنا في درب حياتي المألوف .. لا جديد .. لقد حفظت كل دقيقة من دقائق حياتي الخاصة في البيت وفي المكتب .. حتى تكشيرة حسين الساعى التقليدية التي يريد أن يثبت بها لنفسه أنه يحيا .. أبى في دنياه التي صنعها ودخل يعيش فيها .. وأمى في حزنها الدائم .. وخطابات متباعدة من (نسى) وبعض صور لها في الريف الإنجليزي .. مكالمات صغيرة من بنات عمى بالإسكندرية .. وزياة سريعة من شريفة ابنة خالتي .. لاشيء جديد يدخل حياتى .. لاشيء على الإطلاق ..

ومر شهر .. وانتهت المطبعة من طبع الكتاب .. وأخيراً .. أخيراً جداً أتى .. كان أكثر شحوباً وعيناه أعمق حزناً .. وكان يبدو ضعف عمره .. وجاء إلى يهدينى نسخة من الكتاب ..

همت :

— مبروك .

— افتحها .

ففتحتها .. ووجدت بداخلها إهداء : « إلى القارئة التي لا تقرأ ، والرسامة التي لا ترسم . إلى نجلاء » .

رفعت وجهى إليه .. وابتسمت للسخرية في كلماته .. ودهشت من

أين يأتي بهذا المرح والحزن يملأ نفسه .. لابد أن الفرحة كانت تطل من عيني
وتفصح سروري بقلبياه .. فقد وجدت صدى لفرحتي في عينيه .
سألت :

— لماذا لم تأت لترى كتابك وهو يطبع ؟ أليس جميلاً أن ترى الحروف التي
كتبتها في هدأة الليل وحدك .. الحروف التي كانت مجرد ضياع من الأفكار
تتحول إلى أسطر مرصوفة وإلى كيان متكامل في كتاب ؟
ابتسم وأجابني ..

— لقد تحولت إلى أديبة يجيد صوغ الكلمات ..
وبقي في عيني انتظار ليجاب على سؤالي
قال أخيراً وشيء من الأمل يدفع بنفسه على رغبته إلى كلماته ..
— كنت مريضاً ..

شعرت في الحال بشيء في داخلي يتمزق شفقة عليه .. وأحسست،
من صوته الآمل أنه ليس مريضاً عادياً .. لكنني أبعدت هذا الخاطر عن
رأسي وحول هو الحديث وجهة أخرى .

— والآن كرسامة .. ما رأيك في الغلاف ؟
— إن سواده يدعو لليأس .

قال .. بهدوء مدرس يشرح لتلميذه :

— بل يدعو للأمل .. ألم تلاحظي هذا الشعاع الذي ينير الغلاف ؟ .
— ولكنه شعاع هزيل .
— ككل أمل .

— كنت أحب أن تحدثني عن أمل كبير لا يحد ..
— هذا أمل الخياليين .

- أنستكثر الأمل على الناس ؟
- أنا أبحث دائماً عن الممكن .. ولا أحب أن يترك الناس أنفسهم لآمال واسعة غير ممكنة التحقيق .
- تذكرت في الحال عشرات الأشياء التي أبدأ فيها ولا أنهيها .. عشرات المفارش تنتظر غرزة النهاية .. واللوحة المشدودة على الحامل لم تنته .. شعرت أن تلك الأشياء حية تصرخ في كي أكمل خلقها ..
- أرجو أن تقولي لي رأيك في الكتاب .. بعد قراءته ..
- ولم أقل إنني قرأته .. كنت في حاجة لأن أقرأه من جديد لأبحث عما خفي عنى من تفكيره .. قلبت صفحات الكتاب فقرأت بعض العناوين « حطام » « نداء » « آتمن شيء » .
- قلت :
- آتمن شيء ؟؟
- الحياة .. أنا أقصد بآتمن شيء .. الحياة ..
- الحياة آتمن شيء ؟
- أأست من رأيي ؟
- أنا أرى أن الحياة لا تستحق أن نحياها .. وأن نعاني كل هذه الآلام بسببها وأنا ببساطة لا آبه لها ..
- وتكلمين بعد هذا عن الأمل ؟
- لقد فقدت شخصاً عزيزاً .. فقدت أخى .. فقدت الدنيا أهميتها بالنسبة لي ولم أعد آبه بشيء ..
- وندمت بسرعة .. لماذا تكلمت هكذا .. لماذا كشفت له عن ذاتي .. ولكنه قال بصوت عميق صادق بدد ندمي :

– لقد مررت أنا يمثل هذه الفترة وتجاوزتها إلى إدراك أوسع للحياة ..
ويجب أن تتجاوزيها أنت أيضاً .. فهذه الفترة أخطر مراحل الحياة ..
وأسميها مرحلة تجاوزاً لأنه من الممكن أن تتجمدى فيها فلا تستطيعين
انتزاع نفسك من هذا السحر الشرير أبداً .. اللامبالاة .. وساعتها تكونين
قد خسرت كل شيء .. حياتك ..

أطبق الكتاب بمرح وقال ..

– ما رأيك لو بدأت هذا الاهتمام برؤية فيلم جديد .. ؟ هل رأيت الفيلم
المعروض الآن عن الرسام تولوز لوترك .. ؟
قلت وأنا مازلت أفكر في كلامه ..

– لالم أراه ..

– ما رأيك لورأيتاه سوياً ..

وقفت حائرة لا أعرف بماذا أجيب .. وأخيراً قلت ..

– لا أشكرك على هذه الدعوة .. ولكنى مصابة ببرد .. وكنت أفكر أنى سأقضى
فترة بعد الظهر فى الفراش ..

– أما زال عندك نفس البرد منذ شهر ؟

قلت فى ابتسام ..

– لا غيره .. ذهب برد وجاء برد آخر ..

– يجب أن تهتمى بنفسك أكثر من ذلك .. ما رأيك لو تركت لك تذكرة
على الباب .. لو أحسست أنك بخير تستطيعين أن تأتى .. ؟
أعجبني اقتراحه فوافقت ..

وامتلاً قلبى بفرحة كبرى .. حتى أنى أردت أن أتحدث لكل إنسان أقابله

- عن فرحتى . وعلى الغداء لم أستطع كيح نفسى من التحدث مع أبى فقلت..
- بابا أنذكر الكاتب أحمد إبراهيم ؟
- قال بلا اهتمام لا .
- الذى حدثتك عن كتابه الذى جاء يطبعه عندنا ..
- آه أنذكر الآن .
- لقد انتهى طبعه وجاء اليوم ليرى النسخ .
- حقاً ؟
- نعم .. وأهدانى نسخة .
- جميل .
- وشعرت بسخافة حديثى .. وعدم إصفااته لى ، فسكت..

دخلت حجرتي بعد الغداء .. إلى عالمي الخاص ذي الجدران الثلاثة ..
والجدار الرابع الذي تكونه نافذة بعرض الحائط مسدلة الستائر .. نظرت
إلى فراشي وإلى اللوحة الصغيرة المعلقة فوقه .. ثم انسابت نظراتي إلى الدولاب
وتلمست جوانبه .. واستقررت أخيراً فوق أحد المقعدين اللذين يكونان
ركني المفضل .. الركن الذي أجلس فيه مع نفسي ..

إن بيني وبين تلك الأشياء صلات صداقة وحب .. أكثر من الصلات
التي تربطني بأبي وأمي .. إنها توحشني عندما أغيب عنها وهي تثرثر إلى
بحكاياتها الصغيرة أحياناً .. إننا أصدقاء وهي تحدثني بلغتها الخاصة لغة
الأشياء .. وأنا أصغى إليها وأفهمها .

جلست على أحد المقعدين لأتخذ قراراً ثابتاً بيني وبين نفسي . هل أني
هذه العلاقة ؟ هل ذهابي معه إلى السينما صواب أم خطأ ؟

إن يده أول يدي تمتد إلى بدفء الصداقة .. بدفء المشاركة .. وقد هزنتي
لمسة الحنان تلك .. عندما قال إنه سيترك لي التذكرة عند الباب ذهبت أولم
أذهب .

وبدت لي التذكرة في تلك اللحظة صك حرية . حريتي في أن أذهب
أولاً أذهب . حريتي أن أقبل صداقته ومعرفته أولاً أقبلها .. وبدأ هذا شيئاً

بديعاً يتيح لي موقفي أن أكون حرة .. حرة في اختيار الأشخاص الذين أريد أن أعرفهم .. وحررة أيضاً في أن أرفضهم .. ولكن هل ذهبت معه صواب أم خطأ ؟

لم أدر لسؤالى جواباً ولا في عيني هشام .. المحبوسين في الإطار المنهوب . ظلت هي الأخرى حائرة رغم الثقة التي نبئت في داخلي بعد اشتغالي والتي كانت ترداد نمواً يوماً بعد يوم ..

في الرابعة كنت قد قررت أن أذهب إليه .. وخلق لي قراري آلاف العوالم السحرية .. ولم أستطع النوم .. ولاحتني الرقاد مفتوحة العينين في الفراش .. قمت أرتب الأشياء التي سأذهب بها إليه .. فتحت الدولاب وأخرجت ثوباً رمادياً .. ولكن لا .. أنا لا أريد ألواناً باهتة بعد اليوم .. أنا أريد لوناً إيجابياً .. لوناً يؤكدني ويوجدني أمام عينيه .. أنا أريده أن ينظر إلى ويعرف تماماً أنني معه أراه وأسمع له ..

في السادسة والنصف نزلت الدرجات إلى الحديقة لآخذ العربة ولكني أحسست وأنا أدخل إليها أنني لست أهلاً للثقة التي اكتسبتها نتيجة عملي .. داخل شعوري إحساس بالذنب فشوش على فرحتي بقاء أحمد ..

كنت ألوز بظلام العربة وأشعر أنني حائرة في صواب أو خطأ تصرفاتي هذه .. والمجتمع حائر حيرتي .. وأمام باب السينما همست ..

— هل من تذكرة باسمي ؟

نظر إلى الرجل وشبح ابتسامة خبيثة بمرح في عينيه ..

— نعم ..

وأعطاني التذكرة .. وصعدت الدرجات وأنا أشعر أن عينيه تحترقان

ظهري وتنخران في عظامي .. قاذبي العامل الآخر على ضوء مصباحه الصغير
إلى مكاني جلست دون كلمة والخوف يمسك لساني ..

وهمس هو ..

— أهلا بك يا نجلاء .

غمغمت بكلام لا أذكره .. وبدأت أهدأ رويداً .. وتلفت حولي في
المكان .. أرسلت عيني إلى الشاشة ولكني ظلمت بعض الوقت لأرى ولا أفهم
ما يدور أمامي .. وأخيراً أخذتني مأساة الفنان إلى القرن الماضي .. إلى حي
افنانين حيث رسم لو ترك أجمل لوحاته التي خلد بها ملهى الطاحونة الحمراء ..
وعندما مددت يدي أودعه .. طلب رقم التليفون ليطمئن على من البرد
الذي ألم بي .. فأعطيتها له والخوف والفرح يمتزجان في قلبي وبولدان شعوراً
مركباً يبهج نفسي .. قال مؤكداً ..

— سأكلمك

في طريقى إلى الفيلا فكرت .. إن مجرد الحوار إلى جانب هذا الشخص
متعة كبيرة .. وشعرت أن شخصيتى تولد من جديد في داخلي .. وتنمو ..

قضيت الصباح أتقلب ضجيرة في الفراش .. ماذا أفعل بكل ساعات يومي .. أنظر إلى نفسي في المرآة أمامي .. أتقلب في الفراش .. ما أسخف ساعات الفراغ هذه ولكن لماذا لا أقرأ .. ليس عندي شيء أقرأه .. كيف وغرفة المكتب جدرانها مكتبات .. ربما لن أجد ما يعجبني في كتب أبي الجامدة .. مهلا .. هناك مكتبة هشام المليئة بعشرات الكتب .. ولكن حجرته مغلقة بالمفتاح ..

وحركت الفكرة أرجلي فغادرت الفراش .. أخذت سلسلة المفاتيح من الدولاب وخرجت إلى الممشى .. مرت على أطراف أصابعي .. إلى حجرته .. فتحت الباب ودخلت ووجدت (هشام) هناك .. في كل أشياءه وجدت (هشام) الطفل في أرجوحته وفي سبفه الخشبي ووجدت (هشام) الصغير في مجموعة طوابعه .. حتى الزهور المنحطة في ألبومها الخاص .. تفوح منها رائحة الزمن .. ووجدت (هشام) اليافع في بنادق الرش .. وفي السناير الأتوماتيكية وقباقيب الانزلاق .. وصوراً عديدة تخلده في تلك اللحظات .. واقفاً في غرور الذكر حاملاً صيده من البط على كتفيه .

وأخيراً (هشام) الشاب . الطالب الجامعي .. وصوراً عديدة أخرى له وهو يلعب المتوازين .. أشياءه كلها جمعتها أمي ورتبتها بعناية فائقة في تسلسل وكأنها قصة حية تتكلم ..

مات (هشام) شاباً .. فهو لن يشبخ أبداً .. مات في قمة تفتحه ونضجه ..
مات كما يجب أن يموت الإنسان .. مات قوياً ..

أخذت بضعة كتب من المكتبة .. ورجعت ثانياً إلى حجرتي .. وجدت لي
أصدقاء جدداً في الكتب .. أصدقاء لا يخذلونني .. بل يمنحونني آفاقاً واسعة
رحبة وثرية عريضاً .. مقابل أن أقضي بعض الوقت معهم .

أعطيتني القراءة فرحة غريبة كثية ونشوة قلقة .. وأصبحت أحاول أن
أرى الدنيا بعيون مختلفة .. وأخذت أكتب أماكنها ضمن محتويات حجرتي ..
أقمت لها مأوى صغيراً لطيفاً ، دولاباً أخذ مكانه بين الكرسيين .. في ركني
المفضل .. يحوار ستائري.

في الرابعة تماماً تكلم أحمد .. سأل عن صحتي وتحدثنا عن الفيلم وعن
الفن وفاجأتني آراؤه عن الحياة .. وجعلتني أناقضه وأتحداه .. وشعرت أنه
فرح بهذا التحدي .. وفهمت أنه يحب لعبة المناقشة ..

كنت قد قررت أن أبقى في اليوم التالي أيضاً في البيت .. ولكنني لم أستطع .
فضلت الذهاب للعمل ..

في الغد إجازتي .. ماذا سأفعل غداً .. فلأذهب إلى شريفة ابنة خالتي
وأقضي الصباح معها .. ومع ابنتيها الجميلتين .. طلبتها تليفونياً وأخذت منها
موعداً للغد ..

وفي الرابعة طلبني أحمد .. وأخذ مني موعداً لتفرج سوياً على معرض
جديد في متحف الفن الحديث .. ولم أنذكر مواعدي مع شريفة إلا بعد أن
أقفلت التليفون ..

كيف نسيت مواعدي مع شريفة بالمرة .. كيف ؟ لقد ألغت مكالمة
أحمد كل الناس وكل مواعيدي مع الآخرين ..

صحوت في الصباح على أصوات عصفير تشفق .. تقلبت في الفراش
الوثير ومددت يدي فأدرت مفتاح الراديو .. فانساب لحن فرنسي ملأت
أنغامه الحجرة ، فتحت عيني .. وتقلبت ثانياً في الفراش .. وألقيت نظراتي
إلى ركن من أركان الحجرة . طالعني إطار دقيق أطلت منه أبيات شعر كانت
قد أعجبتني من زمن فعلقنها ..

ثبت أقدامك بثقة وثبات فوق أرض الحياة ..
وكن مخلصاً وحنوناً ..

وافرح لأصفر بهجة تصادفك ..
بذلك تظل نفسك شابة غنية آملة ..

لا تترك شيئاً يضيع منك ..
واجعل من تجاربك الماضية ..

نوراً جديداً يضيء لك حاضرك ومستقبلك ..

بدأت أقرؤها كأنى أراها لأول مرة .. وبدأت أفهم معانيها كشيء
جديد كل الجدة .. لاشك أن وجودها المستمر أمامي أعدها وألغاه وأفقدتها
كيانها في تفكيري .

في هذا الصباح نبتت بقلبي فرحة .. هناك شخص سينتظرنى .. وربما بقلبه
لحفة إلى لقائي ..

ثم عاد يداهمني نفس الشعور بالذنب .. دخلت حجرة أمي لأقنع
نفسي بأنها راضية عن تصرفاتي .. أعطتني أمي مصروف الشهرى دون أن
أطلبه .. شعرت أنى لا أريد أن آخذه وأنى لا أتقبل عطاءها .. أنا أكسب
الآن تقودى بتعبي ..

تركها ونزلت .. ولم تسألنى إلى أين .. فمند أن اشتغلت أعطاني عمل
حرية ..

نزلت الدرجات إلى الحديقة ورفعت رأسي إلى السماء وبدا اليوم جميلاً
رغم الشتاء .. وشعرت أن الهواء النظيف الذي ينفذ إلى رئتي قد أرسل خصيصاً
من أجلى ولم يشمه أحد قبلى ..

ركبت العربة إلى المتحف .. وخطوت إلى المدخل المفروش بالخضرة
ثم إلى الساحة الصغيرة الظليلة ووجدت أحمد واقفاً يتأمل النقوش العربية ..
اقتربت منه وهمست .

— صباح الخير ..

استدار وأشرق وجهه كله .. واحتضنتني العينان الحزيتان بود وقال ..

— صباح الخير ..

أمسك يدي ببساطة بين يديه وأبقاها معه .. وصعدنا السلم سوياً إلى أعلى ..
خطونا إلى الداخل .. وأخذنا نتفرج على اللوحات .. ألوان وظلال .. وعوالم
مختلفة خلقها فنانون عديليون ..

وقفت أمام لوحة تمثل درجات سلم تصعد إلى أعلى .. وتقع على درجة
منها بقعة شمس .. وعلى أخرى ظل أخضر .. مجرد درجات سلم ولكني
أحببت اللوحة .

لقد نجح الفنان في أن ينقل إلى حبه وودده وذكرياته إزاء تلك الدرجات
ومررنا على لوحة .. وأخرى .. ووقفنا أمام صورة لامرأة مجردة متكئة
على مسند .. واللوحة مأخوذة من زوايا متخفضة فبدت ضخامة فخذيها
وتنقور صدرها مثيرين .. ومن آخر اللوحة أطل رأس صغير متناه في الصغر ..

كان إحساس الفنان كله باللحم والجسد . فلم ير في المرأة سوى جسد ..
أنى فحسب .. بلا عقل .. أو هو لا يأبه لعقل المرأة كثيراً .. غاظتني اللوحة ..
وأحسست أنى أريد أن أعطيها بأى شيء .. فلم تكن صورة جمالية ..
ولكن الجنس كان يصرخ من خلال خطوطها الموحية .. شعرت أن كل
النساء عرايا وأنا مجرد أداة لذة للرجل .. أذلتني اللوحة فكهرت أنوثتى أكثر .
قلت إنى لا أحب هذه اللوحة .. التفت أحمد إلى بدهشة .. أردفت قائلة ..
إنه يستعرض جسد المرأة برخص وهو يتنذل معنى الجمال الذى وضعته
الطبيعة فيها ..

قال أحمد :

— بالعكس .. أنا أرى هذا جميلاً ..
— أنا لا أعترض على عريها ولكن على الطريقة التى استغل بها الفنان هذا
العري .

سكت أحمد لحظة ثم قال ..

— أتخجلين من جسدك يا نجلاء .. ؟

أجبت كاذبة ..

— أنا لا أخجل منه .

— بل تخجلين .. وتنظرين إلى رغباتك كشىء حقير أدنى منك ..

تلون وجهى فجأة بحمرة الغضب والحجل .. قلت ..

— ليس عندى رغبات ..

قال ببساطة :

— كيف .. أنت إذن تقتلين إحساساتك قبل أن تولد ..

صعقت .. كيف يكلمنى أحمد هذا الكلام الغريب .. فكرت أن أتركه وأخرج .. ولكنه عاد يبدى إعجابه باللوحة ففاظطى أكثر وقررت البقاء لأدافع عن أبى ..

قال :

— أنا أرى هذا العرى المثير جميلاً .. كالرقص البلدى مثلاً .. إنه فن مثير جميل .. يعجبنى ..

وجدت نفسى أدخل فى مناقشة لم أكن أتخيل أنى يمكن أن أتكلم فيها .. قلت :

— تستطيع أن تسميه رقصاً .. ولكنك تخطئ لو أسميته فناً .. إن أى فن يفتعل الإثارة لا يكون فناً ..

ثم أضفت ..

.. وأنا لأحب أن ترقص المرأة لشير الرجل .. إنه يعبر فقط عن المرأة .. وحتى ليس عن المرأة اليوم .. بل عن المرأة أيام الحريم .. لقد نزلت المرأة اليوم إلى شتى الميادين ونحن الآن فى الشارع والأتوبيس والسينما مع الرجل .. لماذا لا توجد الرقصة التى تجمع بين الرجل والمرأة .. وتشركهما فى وحدة فنية متكاملة ؟

قال فى إصرار :

— الرقصة الفردية للمرأة لن نموت .. حتى لو وجدت الرقصة المشتركة التى تتكلمين عنها .. لأن المرأة كانت وستظل أبداً معنى كبيراً يعبر عن الجمال والتاسق والحب ..

قلت فى دهشة :

— كيف تتكلم عن المعاني الكبيرة المجردة ومن لحظة كنت تمجد الحب والجنس .

— أنا لأفصل هذه عن تلك.. إن المعاني المجردة تعبر عن نفسها عن طريق العقل .. وعنه ينبثق نبع الحب والفن .. والجنس يعبر عن نفسه عن طريق الجسد وأنا لا أحتقر الجنس .. فهو رباط يقوى علاقة الرجل بالمرأة ويحفظها ويتج عن طريقها حياة متصلة دائمة .
فكرت لحظة ثم عدت أقول :

— أتعلم أنه لن يكون هناك تساوي بين المرأة والرجل مهما تكلمنا ..
قال في دهشة لصيغة اليقين التي تكلمت بها :
— لماذا ؟

— لأننا للآن لم نساو المرأة بالرجل إلا ظاهرياً فقط .. أما في الحقيقة فالمرأة ما زالت متاعاً للرجل .. بلا رأى ولا حق في أن تختار الحياة التي تروقها للآن عندما يتحدث بعض الرجال عن نساءهم لا يقولون سوى البيت أو الجماعة . إن مجرد ذكر اسم المرأة يذكرهم بالفراش والمتاع .. لأنهم يعتبرون اسم المرأة عورة يجب سترها .. إن رجالنا مازالوا يعيشون بعقلية هارون الرشيد وسط مظاهر مدنية القرن العشرين .

— لماذا تصيب اتهامك كله على الرجل ؟ . إن المرأة لا تخلو هي الأخرى من مسئولية فهي تتصرف في أغلب الأوقات تصرف الحريم .. ثم إن الرجل أذكى وأكثر ثقافة من المرأة ، وهو فوق ذلك يعولها مالياً والمرأة تريد الحرية بلا ثمن وهي قابعة في بيتها والرجل يحارب في كل الميادين .. وهذا غير معقول .. إن الحرية التي تطالب بها المرأة يجب أولاً أن تدفع مقابلها تحراً اقتصادياً واستقلالاً عن الرجل .

— هو أكثر ثقافة نعم .. ولكنه ليس أكبر ذكاء .. إنه فقط أخذ القرصة ..
فرصة التعليم .. وفرصة التجربة أما المرأة فقد حرمت لأجيال طويلة من
التعليم ومن التجربة ..
أهمل أحمد ملاحظتي وقال بسخرية ..

— ولكن يوم أن تفوز المرأة بتلك الحرية التي ولدت من أجلها سنين عديدة
ستجد أنها دفعت أكثر مما يجب .. وستمنى أن لو ترجع إلى عهد الحريم
الذي يضايقك اسمه .. لأن كلمة الحرية التي تحبينها لها وقع جميل على
الأذن ، ولكن عندما تمارسينها ممارسة كاملة ستجدينها شيئاً مختلفاً كل
الاختلاف عما كنت تعتدينه .. إن الحرية مسئولية .. مسئولية أن تتحمل
صواب وخطأ تصرفاتك ، مسئولية إعالة نفسك وتنسيق ميزانيتك ..
الحرية عمل وفي النهاية سوف يسلبك العمل أنوثتك .. ويجعل منك نصف
رجل ونصف امرأة ..
قلت بإصرار :

— ولكنك تؤمن بعمل المرأة وتحررها اقتصادياً عن الرجل . ألم تقل هنا ؟
— نعم .. هذا يقتضيه العصر الحديث .. ولكني دائماً أصل بالنتائج إلى
آخرها والنتيجة هي ذلك الجنس الثالث من أنصاف الرجال وأنصاف
النساء .. وقفت غاضبة أنظر إليه .. إنه يرفض الحلول ويحبسني داخل
كلامه الدائري ويسخر من حرية المرأة .. إننا لا ننطق .. إننا نتعارض
ونتصادم انتقلنا إلى لوحة أخرى تمثل شارعاً ووجدته يقول :

— ربما تعجبك تلك اللوحة فليس فيها ما يبشر .. ولكنها لا تعني عندي شيئاً
لأنها لا تصور سوى الواقع وأنا أحب الفنان أن يضع بعداً جديداً من
عنده غير مجرد النقل الحرفي للواقع .

كان في لهجة كثير من التحدى .. وأمام لوحة أخرى غامضة وقفت أفكر وأحاول أن أفهم تلك الخطوط المتشابكة الملتهبة بعضها ببعض حتى لكأنى قد أصبحت خطأ في اللوحة وظلا ولونا وفهمت ماأراد أن يقول الفنان .. كان يقول بأسلوب الخط وبلغة اللون .. إننا كيان واحد متشابك متداخل .. إننا ملتصقون ببعضنا البعض . النور ملتصق بالظلام .. والنساء بالرجال .. والبنات بالصبيان . في مجتمع واحد يعتمد كله على بعضه .. الحياة فيها وحدة مشتركة ..

صارحته بما فهمت ..

فقال :

— برافو ..

أقلت إليه دهشة ..

فقال :

— أنا أعنيها أنا لم أفهمها إلا منك ..

في الحال مات عدائى له .. ومات رغبى في أن أمحاه .. وعادت صراحته وبساطته تأخذنى في أحضانها ..

خرجنا من المعرض وكانت يدى من جديد بين يديه .. وقفنا لحظة نتحدث ورأيت مرغنى يلف بالعربة متجهاً إلى ناحيتى .. أوقفها ونزل يفتح الباب .. نظر أحمد إلى العربة دون أن يفهم أنها لى ..

قال بغيظ :

— هؤلاء الأغنياء العاطلون ذوو العربات الفارحة .. الذين يمحسون قوت

الشعب ، تلفت إلى الناحية الأخرى يبحث عن سيركب العربة ..

شل عقلى عن التفكير أمام المفاجأة .. وتمنيت في تلك اللحظة لو لم تكن العربة ملكى ..

ولكن مرغى الغنى العجوز كان قد فتح الباب فى تلك اللحظة ونظر ناحيتى وقال :

— تفضلى يا ست ها نم..

نظر إلى أحمد دون فهم .. وألقيت أنا عيني إلى الأرض .. عرضت أن أوصله ولكنه قال :

— شكراً سأمشى على قدمى ..

ركبت العربة كعادتى عندما أكون وحدى بجوار السائق .. نظرت فى المرأة أمامى .. ووجدت صورة أحمد تتراجع بسرعة ورأى واضعاً يديه فى جيوبه وماشياً ببطء وهو سرحان .. ترى ماذا كان يظننى ؟ . فتاة عاملة تعمل من أجل كسب المال . ما أنا سوى مدللة تملأ فراغ وقتها بعمل لا تحبه كثيراً .

فى دخولى إلى الفيلا وجدت أمى جالسة فى المدخل . قالت عندما رأتنى :

— ستأتى عمتك وابنها اليوم .. كوفى على استعداد لاستقبالهما فى الساعة أومات إليها موافقة .. وصعدت الدرجات إلى حجرتى .. وهناك فى عالمى الخاص جالت أتساءل .. هل أنا مذنبه لأنى أنتمى لأمرأة ثرية بل فاحشة الثراء ؟ ما ذنبى أنا ؟ .. ولماذا يكره أحمد الأغنياء ويسميههم مصاصى دماء .. شىء لم أفهمه فى كلمات أحمد .. وإن أحسست إحساساً داخلياً أنه على حق .. وبدأ لى أنه فى فقره وكفاحه من أجل كتبه وعمله فى الجريدة واقف على أرض شريفة .

فى منتصف الساعة .. وقفت أمام المرأة لأرتدى ثيابى ورأيت جمالاً كله وشبابى مطبوعاً أمامى على صفحة المرأة .. ولكنه لم يبهجنى ولم يفرح قلبى .. وساءتني كلمات أحمد (كل هذا الجمال والثقافة ولا تحبين الدنيا.. ماذا رأيت

أنت فيها) ماذا رأيت؟.. ترى ماذا رأى هو من الدنيا..؟ لا بد أنه رأى الكثير .
إن في ملامح وجهه بجانب القلق ثباتاً .. وفي نظرة عينيه شخصاً واثقاً من نفسه
وآخر حائراً ولكن ليس في عقله ذلك السوس الذى ينخر فيه مثل عقلى ..
لو أستطيع أن أكون مثله واثقة من نفسى؟ لو أستطيع؟ لو أستطيع؟ ..

في تمام الساعة نزلت الدرجات إلى أسفل لأستقبل عمى .. وابنها عادل ..
استرعى انتباعى شىء جديد في نظرة عادل إلى .. إنها تشبه إلى حد كبير نظرة
أحمد .. نظرة هى خليط من الاهتمام والتعجب .. إن النظرتين يشوبهما
شىء من التعجب .. لا أدري له سبب ..

بعد قليل نزلت أمى وتبادلت مع عمى نفاق القبلات .. وجلسنا نثرثر
عن أزياء الشتاء .. تكلمت عمى عن قراء الفيزون الحديد الذى اشترته ..
وتكلمت أمى عن العربى الجديدة التى اشتراها أبى .. وتكلم عادل موجهاً
الحديث إلى ولكن بلهجة فيها شىء من السخرية ..

— كيف يسير العمل معك؟

في الحال فهمت مبعث تلك السخرية .. فأنا أصادف مثلها في عمل ..
في لهجة كل الرجال الذين أقابلهم .. إنها لهجة تقول لى من خلال الحديث :
ما الذى أتى بك هنا ؟ . هنا ميدان الرجال .. ارجعى من حيث جئت إن
مكانك البيت ..

وانتابنى ما يتابنى دائماً عندما أسمع تلك اللهجة .. انتابنى التحدى . قلت
بلهجة مماثلة .. وبنفس كلماته :

— وكيف يسير العمل معك أنت؟

تغيرت النظرة بسرعة في عينيه كأنها إشارة المرور .. تحولت فجأة من

اللون الأخضر إلى اللون الأحمر . وأغاظه أنى أسأله سؤال الند لاند ..

رد بسرعة :

- على ما يرام ..

ثم غير الحديث ..

- هل رأيت شيئاً من برامج الأوبرا ؟

هزئت رأسي نقياً فقال بدهشة :

- كيف ؟

وانتفت إلى أمه ..

- هل تتصورين أن نجلاء لم تر شيئاً من برنامج الأوبرا .. هذا الموسم ؟

انتقلت الدهشة من عيني الابن إلى عيني الأم .

- كيف لم ترى الأوبرا هذا الموسم ؟ لقد رأينا كل البرنامج تقريباً .. إن لنا

بنوارةً محجوزاً باستمرار كل ليلة .

ثم انتفت إلى أمي قائلة :

- كيف ؟

ردت أمي وظلال من الحزن تخيم على نبرات صوتها :

- منذ موت هشام وأنا لا أهتم بأى شيء . لقد هدنتى وفاته ..

سقط صوت تقيل في الحجرة .. لم يبدده سوى دخول عبده السرجي

بأفراح الفهوة . وعندما سلما ليذهبا سأل عادل أمي :

- هل أستطيع أن أصحب نجلاء إلى الأوبرا غداً ؟

قالت أمي بترحاب كبير

- نعم يا ابني تستطيع بكل تأكيد .

ولم أجد سبباً للاعتراض فوافقت ، ولكنى لم أستطع منع نفسى من التفكير
فى غرابة هذا الاهتمام المفاجئ بى .

فى التاسعة كان عادل ينتظرنى فى البهو ليصحبنى إلى الأوبرا .. وكانت
تلك أول مرة أخرج فيها مع رجل بموافقة أبوى .. ظنلت أنسأهل عما وراء
تلك الموافقة من أهداف . والعربة فى طريقها إلى الأوبرا .. ولم أجد جواباً
على سؤالى حتى أفقت على عادل وهو يفتح لى باب العربة لأنزل .. رفعت
عينى إلى وجهه فوجدت نظرة عينيه مختلفة عن نظرة أمس . إنه لا يرى فى
تلك المرة سوى أنثى .. كائن جميل فحسب .. دمية حلوة .. ووردة يزين
بها ذراعاه عند الخروج .. وضايقتنى النظرة .. إنها نبخس قدرى وتسخر من
شخصيتى ..

أجلستنى عادل على الكرسي ووضع يديه على كتفى ليخلع القراء ولكن
يديه استقرتا أكثر مما يجب ، وشعرت بهما تضغطان كتنى برفق ثم تحملان القراء
إلى المشجب .

وارتفعت موسيقى تشايكوفسكى الموحية فرسمت آلاف المعانى والأخيلة
وارتفعت الستار .. بدأت أتابع العرض .. التعبير بالجد كله فى رقصة ..
كل أصبع ، كل ارتعاشة كانت تترجم معنى أو عاطفة .. تدريجياً سعت
ضوضاء هامة بجوار أذنى .. التفت فوجدت عادل يفتح فمه ويقفله بشرح لى
ما أفهمه جيداً .. دون حاجة إليه .. إذن عادل لم يتغير رغم تلك السنين التى
قضاها فى الخارج ، ما زال هو نفس الشخص الذى يفترض غياب الآخرين
 ويفترض أيضاً أنه الوحيد الذى يفهم فى الدنيا .. نعم ما زال عادل هو هو لم
يتغير .. رفيق الطفولة .. المشاكس .. وصديق هشام المبيط .. لم أطلب
منه أن يسكت ، تركته بشرح مادام هذا يعجبه ومادمت لأسمع له .. ألقبت
بانتباهى كله إلى المسرح ورحت أحلم ..

في الصباح نادتنى أمى إلى حجرتها .. قبلتنى ونظرة الاهتمام تتسع في
عينها وتكبر .. أجلسننى بجوارها على الفراش وهمست :
— كل سنة وانت طيبة يا نجلاء اليوم عيد ميلادك .. لقد أصبحت عروساً
في التاسعة عشرة .

ارتعشت في قلبى فرحة .. لأن أمى تذكرت يوم مولدى .. تذكرتنى ..
دست يدها بجانبها وأخرجت علبة زرقاء من القطيفة وفتحتها .. خطف بصري
بريق حجر ماسى يلتمع وتوقف عقلى عن التفكير .. أنا أحب الماس ، إنه
يبرق ويضئ كأنه يحتوى على عشرات المرايا الملونة .. ومع ذلك يظل بياضه
نقياً شفافاً .. فربداً جميلاً في تعاليمه . مددت يدى وسحبت الخاتم .. ودسته
في إصبعى وأخذت أحرك يدى في كل اتجاه عقلى شريط الشمس المتسلل
من النافذة فتضاعف لمعانه .. وكون على جلد ان الحجرة دنيا من البريق ،
سمعت صوت أمى يقول :

— هل أعجبك ؟

أجبتها .. ورأسى بدور مع البريق ..

— جداً ..

— ما رأيك في عادل يا نجلاء ؟

قلت دون اهتمام ...

— لطيف .. لماذا ؟

— لأنه طلب يدك للزواج .

قلت في دهشة .

— للزواج ؟

ومضت برهة من الصمت .. إذن هذا الاهتمام المفاجئ ليس لي ..
عشرات المرايا الملونة التي تلتصق في الخاتم الماسي ليست لي .. نظرة الاهتمام
في عينيها ليست لي .. كل ذلك من أجل الرجل الذي تقدم إلى فأنبت أنى
جديرة بكل هذا لأنى حزت إعجابه .. كل هذا لأن رجلاً تقدم إلى يمنحني
وصام اسمه .

خلعت الخاتم من إصبعي ووضعت في علبة وقمت من جوار أمي ..
قالت في دهشة ..

— لماذا تركته ؟ .

قلت .. في ثبات :

— أنا أعمل ولن أستطيع لبس هذه الثروة في يدي كل يوم ..
قالت موضحة ..

— ولكنك لن تعملي .. ستزوجين وتصبحين امرأة هادئة ..

— ولكني لم أقل إنى وافقت ..

— ولماذا لا توافقين ؟

— لأنى ببساطة .. لا أريد أن أتزوج .. أنا أحب عملي ..

ضاعت عيناها وهي تنفرس في كأنى شخص جديد لا تعرفه .. وقالت
في صوت حاولت أن تخرجه هادئاً .

— لا ترفضى بسرعة .. عادل غنى ذو مركز .. وهو فوق .. لك ابن عمك ..
وهو أولى بك.

— أولى بى ..

زادتنى الكلمة غضباً .. أولى بى كأنى قطعة أرض .. وهو أولى الناس
بشرائها .. تركت الغرفة وخرجت حتى لا أنفجر فيها ..

دخلت إلى حجرتى وأنا أحاول أن أتصور نفسى زوجة عادل ولكنى
لم أستطع .. أنا أرفضه .. وليس رفضى هذا وليد اللحظة ..

كيف قبل أن أتزوج منه اليوم وأنا لم أحبه قط .. لا أيام الطفولة عندما
كان يأتى ليلعب مع هشام .. ولا عندما بدأت أتمتع وأصبح أنثى .. كان
هو دائماً متكبراً معترأ بنفسه لأنه ينتمى إلى الجنس الأعلى والأقوى .. إلى
الرجال .. وكان دائماً ينظر إلى ككائن أدنى منه .. ولن أنسى ذلك الحوار
الذى دار بينه وبين هشام فى أول يوم العيد الكبير .. كنت قد صحت
مبكرة فى ذلك اليوم .. وصعدت إلى السطح لأرى ذبح خروف العيد ..
كنت فرحة لمظاهر العيد كلها .. لثوبى الحديد الجميل وحنائى ذى الكعب ..
ولإحساسى بذلك التغير الحديد الذى طرأ على جسدى وروحى .. بأنوثتى ..
وقفت بجوار هشام أنفجر على الجزار وهو يمسك الخروف الكبير من قرنيه
ويطرحه على الأرض .. وفجأة سمعت صوت عادل يقول :

— حتى فى الحيوانات للذكر فقط الشرف فى أن يذبح ليكون ضحية ..
أما الأنثى النعجة فلا ..

تدافعت الدموع إلى عيني بسرعة فأخذت أعض شفتى السفلى بعنف
وأحسنت أنى رخصت ورخصت .. إلى درجة أقل من الحيوان ..
الولد أولاً ثم البنت .. ولكنى مع هشام لم أكن أشعر بذلك ..

انبثق في عقلي فجأة نور باهر أضاء تفكيرى كله بمعان جديدة .. هل
أحببت هشام حقاً ؟ أم أنى كنت منساقاً في حبه كانسياق كل من في البيت ؟
كيف فانتنى هذه الحقيقة البسيطة الواضحة ؟ الآن فقط أشعر أنى لم أكن
سوى تابعة لهشام .. كل سعادتى الصغيرة كانت من فضلات سعادته .. مباحج
البيت كلها كانت بسببه ومن أجله .. رحلات الصيد وضرب النار ترتب
حسب إجازات هشام ، الصور والكاميرات وآلة سينما تشتري من أجل
هشام .. لقد عرف هشام مباحج عديدة لم أعرفها .. وظللت أنظر إلى الأشياء
العادية التى يصنعها كما لو كانت معجزات .. لا يحق لى أن أشارك فيها ..

الآن فقط أعلم أنى كنت أنخدع نفسى طوال تلك السنين ..

نعم .. الحب كله كان من أجله هو .. الرجل .. ولأنه مات .. مات بموته
البيت كله .. لا حب .. لا حنان من أجل .. لا شىء يفرحنى ويدخل البهجة
إلى قلبى .. قلبى الوحيد الحزين .

والآن .. ماذا يريد أبى وأمى أن يفعلا بى .. لإنهما يريدان أن يتخلصا
منى .. يريدان أن يزوجانى . ولكن لا لن أتزوج عادل .. لن يشتري بثرائه
ومركزه .. ولن يأخذنى لأنه أولى الناس بى .. مازالت أمامى السنين رحبة
واسعة .. وأيام عمرى ثروة أملكها وحدى .. وسأنفقها كيفما أحب .. أنا حرة
وسوف أتحمّل مسئولية حريقى .. وأخطاء تلك الحرية ..

وجاء أبى يكلمنى فى موضوع الزواج .. سمعت سعاله الثقيلدى وراء الباب . جاءت اللحظة الحاسمة .. جاءت اللحظة التى يجب أن أواجه فيها أبى كفتاة ناضجة وليس كابنة تابعة له .. هذه لحظة دفاعى عن حريتى .. وعن كيانى كله .. فتح الباب وظهر وراءه بقامته القصيرة الممتلئة .. أشعل سيجارة وقال بلهجة طبيعية .

— نجلاء .. كوفى على استعداد لاستقبال خطيبك اليوم .. سيمر فى الساعة لننزلا إلى الجواهرجى سوياً لانتقاء الشبكة ..
إنه يضع قرارات حاسمة لتنفيذ بلا مناقشة .

— لن أستطيع التزول إلى البلد يا بابا..

— هل أنت مريضة ؟ إذن غدا . سأعطيه موعداً لغد صباحاً ..
استجمعت كل شجاعتي وكل قوة شخصيتى ..

— بابا . أنا لا أريد أن أتزوج عادل ..

اضطرب .. اهتر السيجار بين أصابعه .. إنه مضطرب هو الآخر ،
إننا متساويان إذن .. إنه ليس أقوى منى .. إننا ندان .. ولكنه قال بنفس نبرات
صوته الصارمة التى تشيع الاضطراب فى أعصابى ..

— بل ستزوجين ..

بدأت الدموع تخذلنى .. تظهر فى عيني .. تفضح خوفي .. لا .. لا .. لا ..
يجب أن أعتقل تلك الدموع وراء أجفاني .. يجب ألا أسمعها بالظهور ..
أنا أحترق هذا السائل المالح الذى لا يعبر إلا عن الضعف والخذلان .. حتى
مع أبى لا يجب أن أظهر ضعفى .. أشعر بشعور الصيد الذى تطبق عليه الشباك ..
فرت دمة بلهاء من وراء أسوار الاعتقال ..
قال يغربنى ..

— أيتها الصغيرة البلهاء .. سيكون لك بيت جديد وعربة خاصة تقودينها
بنفسك .. ورحلة إلى بلدان أوروبا .
— أنا لا أريد أن أتزوج ..

— لماذا يا حبيبى ؟
أنا حبيبته ؟ لأول مرة أسمعه يقولها ..
لماذا لم يظهر لى كل هذا الحنان إلا الآن ؟ . سكت لحظة ثم تمتم فى رقة ..
— نجلاء ، تعالى هنا ، قربى منى ..

أمسك يدي وشدنى إليه .. أجلسنى بجواره ورفع وجهى .. وقال :

— نجلاء .. انظرى إلى .. لماذا لا تنظرين إلى .. أليس أنا بابا ؟
صحيح هو بابا .. رفعت عيني ببطء إلى عينيه .. وكانت أول مرة أنظر
فيها إلى أبى مباشرة وعلى هذا القرب .. إن عينيه لونهما عسل رائق وبهما تساؤل
وفيهما طيبة .. أنا أحب تلك الطيبة .. وأكره هذا التساؤل .. أخذ رأسي
بين كفهِ وراح يربت ظهرى بحنان زائد وأحست أنى أريد أن أغفو أو
أبكي إلى حد الإغماء .. وبعد فترة طويلة قال فى مزاح هامس ..
— هل نمت يا نجلاء ؟ .

رفع رأسي وشد أذنى مداعباً .. كان أبى الحقيقى .. أبى الذى لم أعرفه

- إلا اللحظة .. أبى الذى يدايعنى ..
- ابتسم .. وابتسمت وقال :
- لا داعى للكلام فى هذا الموضوع .. إذا كان هذا يضايقك الآن فلنؤجل ذلك .. هه .. ؟
- بل أريد أن نتكلم الآن .. بابا أنا لا أحب عادل .
- وسكت لحظة وأطرق إلى الأرض مفكراً ثم قال فى هدوء :
- ومن قال لك إن كل من يتزوج يجب قبل الزواج .. إن الحب يأتى بعد الزواج وبالمعاشرة والمعاملة الطيبة .
- قلت وكأنى أكلم قصى :
- ولكنى أريد شخصاً أحبه ..
- هل تحبين شخصاً بالذات ؟ . إذا كان الأمر كذلك .. وكان شخصاً مناسباً فأننا على استعداد أن أزوجه لك ..
- فوجئت وفكرت .. هل أنا أحب أحمد .. ؟ لا لم أصل إلى درجة الحب بعد .. إنها بداية قد تصل إلى الحب .. ولكنها بداية فحسب ..
- أجبت :
- لا .
- إذن .. ليس هناك شخص بالذات .. وعادل لائق ومناسب ومركزه ممتاز .
- سكت لم أعرف بماذا أجيبه .
- أكل هو :
- هل أقول حلا ؟ ما رأيك فى فترة خطوبة تعرفينه فيها أكثر ..
- ولكن عادل ليس غريباً يا بابا .. أنا أعرفه حق المعرفة ..
- لا .. لا .. لقد سافر إلى الخارج ولاشك أن الغربة قد غيرته كثيراً ..

ربما كنت في حاجة إلى اكتشافه من جديد..
لم أجد ما أقوله .. فسكت .
— ابنتي حبيبي .. هاتي قبلة ..
وقبلني على خدي ومضي خفيفاً إلى الخارج .. وقد سلب مني موافقة
لم أكن أظن أنه يمكن أن يأخذها بهذه البساطة ..

وبدأ عادل يزورنا .. وينغمزني بفيض من الهدايا التي لا أحتاج إليها ،
وبدأ يتحدث عن دراسته في الخارج وعن أمريكا .. وعن جامعة هارفارد ،
وكان يتحدث ساعات طويلة .. ولا أجد أنا كلمة أقولها .. ولا شيئاً أريد
أن أسأل عنه ..

وفي يوم ظل يتحدث ويتحدث ثم توقف عن الكلام وسأل ..
— نجلاء .. أليس عندك ماتقولينه لي .. لماذا هذا الصمت المستمر ؟ .
— أبداً ..

— هل ضايقت حديثي عن أمريكا .. لنغير الموضوع ..
سكت لحظة ثم استطرد دون تفكير :

— ما رأيك في السينما .. ما رأيك في الأفلام المصرية ؟
— بعضها سخيف .. وبعضها لا بأس به ..

— من أحسن ممثلة .. هنا ؟

— فاتن ..

— أتعلمين أن تمثيل فاتن هنا يعتبر لا شيء في أمريكا ؟

— لماذا ؟ . إنها ممثلة تفهم طبيعة أدوارها تماماً كأي ممثلة أمريكية شهيرة

— لا .. لا .. لورأيت الاستديوهات هناك .. والممثلين الحقيقيين لأصابتك
الذهول.

— إن ما ينقصنا هي الإمكانيات وليس الفن .. عندنا فنانون ولكن الفقر
في الإمكانيات لا يظهر مواهبهم ..

— نعم .. هنا عندكم جهل وفقر ..

— عندنا ؟ وماذا عندك أنت .. هل تبرأت من مصرينك ؟

— أنا لا أخفي عنك أني أفكر بالفعل في السفر إلى أمريكا واصطحابك معي
للعيش هناك بعد الزواج .

— ومن قال لك إني سأوافق ..

— ولماذا لا توافقين ؟ هذا بلد لا يقدر أبناءه ولا يضعهم في موضعهم
الصحيح .

— وما هو موضعك الصحيح ؟

— ها أنا مثلاً قد عدت من الخارج بعد سنوات دراسة .. ماذا يريدون أن
يعطوني كرتب ؟ . ملايم .. تخيل .. تعالى انظري إلى أمريكا ، إنهم
هناك يعطون الأساتذة ألوفاً من الدولارات ..

— لم يحض على حضورك سوى شهور وتكلم هذا الكلام .. لماذا لا تعتبر
مصر اليوم كأمریکا أمس عندما هبط عليها الرواد الأول .. لماذا لا تكون
والداً ؟

— ما كل هذا الحماس ؟ لم أكن أعلم أنك وطنية ..

هل كنت متحمسة .. ؟ ولكنه كان إحساسى الحق .. وأعتقد أيضاً أنه
إحساس أحمد لو عرض له نفس الأمر ..

لماذا يقفز أحمد دائماً إلى عندما أشعر أني على حق .. أو عندما أتلقت
حولى داخلياً باحثة عن سند يؤيدنى ؟ .

- إذا أردت أن تسميها وطنية فليكن .. وماذا عن وطنيتك أنت ؟
- ليس عندي وطنية .
- هكذا ببساطة ؟
- هكذا ببساطة .. ولنته من هذه المناقشة السخيفة .. هيا نخرج ..
- لا أريد الخروج ..
- هيا .. هيا .. سنذهب إلى الأوبرج .. هناك نمرّة جديدة ستعجبك ..
- لا أريد الخروج ..
- لماذا تعاندينى ؟
- أنا لم أعانذك .. أنا فقط لا أريد الخروج ..
- هذه معاندة .. الزوجة يجب أن تطيع زوجها .. هذا هو المفروض ..
- ولكنى لم أوافق بعد على أن تصبح زوجى ..
- موافقتك ليست مهمة .. لقد وافق أبوك وأمك .
- إذن تزوجهما ..
- أنت وقحة ..
- وأنت لاكرامة لك .
- ودخلت أمى على صوتنا الذى تعالى حتى وصل إلى حجرتها .. جاءت
تجبرى .
- ماذا بكما يا أولاد .. ماذا حدث ؟
- أيعجبك أن تقول نجلاء إنى لاكرامة لى ؟
- ودون أن تسمع أمى بقية كلامه ودون أن تعطبنى فرصة للرد صاحت فى :
- نجلاء كيف تقولين لخطيبك هذا الكلام ؟

— أولا هو ليس خطيبي .. ثم أنا لم أقل له هذا الكلام .. إلا بعد أن قال لي
إني وقحة ..

وبهت أُمي ..

— كيف تتكلمان بهذه الألفاظ .. نجلاء هل هذا يليق بك .. عادل هل هذا
كلام رجل لم يمض على حضوره من أمريكا إلا أشهر معدودات ؟

— أمريكا .. أمريكا .. أمريكا .. لم تصنع له شيئا .. عادل هو عادل الذي
أعرفه تمام المعرفة .. ربما زادته أمريكا أنانية على أنانيته ..

وجريت أصعد السلم إلى أعلى قبل أن أضعف .. وأجهش بالبكاء ..
وجاء أبي ثائراً مهتاجاً ..

— نجلاء ما هذا الكلام الذي سمعته من والدتك ؟

— أي كلام ؟

— كيف تشتمين عادل ؟

— أنا لم أشتمه ..

— شتمته .. وأكثر من ذلك كنت قليلة الأدب ..

— أنا لم أكن قليلة الأدب ..

— وماذا تسمين البنت التي تقول لخطيبها اذهب فتزوج أبوي :: هل تقول
هذا الكلام بنت مهيبة ..

— . . .

— لماذا تصمتين ؟

وأطرق لحظة مفكراً ثم عاد يقول في حيرة ..

— أنا أريد أن أفهم ما الذي يدور في رأسك ..

إن ما يدور في رأسي ملكي .. ملكي ولاحق لأي مخلوق فيه .. حتى أبي
نفسه ..

وأسكرتني الفكرة وكدت أضحك من فرط السعادة .. حينما قال أبي
بإستسلام فجأة ..

— لن أكرهك على هذا الزواج .. إذا كنت لا تريدينه .. لتكون هذه
مشيئتك ..

وعدت للعمل من جديد ..

دخلت المكتب وكانت نادبة جالسة إلى مكتبها والنافذة نصف مفتوحة
والعمل دائر ككل يوم .. أحسست أنى أحب هذا المكان .. قامت نادبة
واحتضنتى بفرحة وقبلتنى وقالت بشوق ..

— نجلاء .. حمد الله على السلامة .. ماذا فعلت ؟

— رفضت .

— حقاً .. كيف ؟ أنا فى شوق شديد لأن أعرف التفاصيل ..

دق جرس التليفون فانشغلت نادبة عنى وإن ظلت الفرحة تلعب فى عينيها
من أجل ..

كانت نادبة فرحة بانتصارى .. ونازعتنى رغبة شديدة فى أن أبوح لها
بمحققة عواطفى ..

انتهت من حديثها التليفونى والتفت إلى ..

— هـ ..

— قولى لى ألم يأت أحمد إبراهيم إلى المكتب أثناء غيابى ؟

— أتى مرة وهو على موعد اليوم مع طاهر لأمر معلقة بينهما .. لماذا ؟

— لأنى مهتمة به .

- قالت بدهشة ..
- حقاً منذ متى ؟
- منذ أول يوم رأيته .
- ولم لم تقولي لي طوال تلك المدة .. ؟
- لم تأت مناسبة ثم إنه مجرد اهتمام ..
- ابتسمت وقالت :
- حقاً .. وما الذي يعجبك فيه .. شكله ليس وسيماً على الإطلاق .. ثم إن له آراء غريبة .
- وهل هذا هو الحب ؟
- لا .. ليس حباً ..
- وماذا يكون إذن ؟
- لا أدري .. كيف أسميه ؟
- الآن أصدقك ..
- وماذا عنك أنت .. أما زال غراماً من طرف واحد ؟
- نعم ..
- وإلى متى ؟
- لست أدري .. إنني حائرة .. به يروغ مني دائماً فلا أعرف كيف أمسك به إنني أتحول في حضوره إلى طفلة تأتمر بإشارة من إصبعه .. آه لو عرفت ماذا يضمر لي في قلبه ؟ .
- لماذا لا تفعلين شيئاً ؟
- ماذا أفعل ؟ . في الحب لا نستطيع أن نفعل شيئاً بل نظل واقفين كالأطفال ننتظر ..

- هذا صغيح ..
- إنه لا يرانى وأنا أمامه كل يوم .. بل أنا جزء من مكتبه ..
- لقد قلتها .. إنه لا يراك لأنك أصبحت جزءاً من مكتبه ..
- أنا لا أفهمك ..
- ماذا تقولان كل يوم ؟ نفس الكلمات تقريباً .. أليس كذلك ؟ . صباح الخير كالعادة .. ثم من اتصل به تليفونياً ومن أخذت له موعداً معه .. ثم دخولك بالدوسيهات وبعد ذلك فى الثانية عشرة تدخلين ثانية لتذكره بتناول الدواء .. إن كل من بالمكتب يعرف حتى حسين الساعى ..
- وماذا يعرفون أيضاً ؟
- لا أدرى .. أسألى نفسك ..
- وبسرعة أدركت أنى أخطأت .. فقد نظرت إلى فى عدا ..
- جلست صامتة وبدأت هى تدريجياً تتغلب على شعورها وقد وجدت أنه عدا غير منطقى فما ذنبى أنا إذا كان نبأ حبها قد ذاع فى المكتب ..
- دخل حسين الساعى إلى الحجرة فقطع خيط أفكارى وراح يتكلم كلاماً كثيراً لم أسمعه فقد كنت أفكر فى أحمد .
- انفرج الباب مرة أخرى ودخل طاهر بقامته الطويلة ووجهه الوسيم ..
- ورفعت نادية عينها تستجديان نظرة اهتمام ولكن عينيه ظلنا مطفأتين .
- قال طاهر دون أن ينظر إليها :
- هل جاء أحمد إبراهيم .. أو اتصل تليفونياً ؟
- ردت وهى تتسول نظرة :
- لا ..
- راح يتكلم فى حدة

— هذا الأحمق .. ماذا يظننى ؟ يعتقد أنى سرقته ؟ ماذا يظننى ؟ .
رفعت عيني إليه وصوبتهما بإصرار فى عينيه لأرى نظراته وهى تكذب ..
أبعد عينيه وراح يتكلم كلاماً كثيراً ..

التقطت أذنى منه كلمتى الأدب والفكر .. كان مرور هاتين الكلمتين
من بين شفثيه الكاذبتين يجردهما من معناهما الكبير .. فلم يكن وهو يتكلم
سوى تاجر ..

سمعت تقرأ على الباب .. ودخل أحمد إلى الحجرة وارتعش قلبى
بالفرحة وتشبثت عيناى لحظة بوجهه ثم انتقلت بسرعة إلى وجه طاهر ..
الذى انفرج فى سماحة كاذبة وترحاب مزيف .. شد على يد أحمد مسلماً ..
وخط على ظهره فى ود وبدأ أحمد حائراً مرتبكاً .. فى عينيه كلمات كثيرة
غاضبة تريد أن تنفجر .. ولكنها تبخرت تماماً أمام ترحيب طاهر الحافل ..
وانسابت كلمات طاهر الرقطاء تلتف حول أحمد فى نعومة .. وكان
غريباً أن ينهزم ذكاء أحمد أمام هذا الخبث .. فتح طاهر باب حجراته
واختفى فيها هو وأحمد .. ومر الوقت ثقبلاً .. وازداد ثقلاً بعد أن خرجت
نادية لبعض الأعمال .

بعد قرون من الزمن خرج أحمد وقد ازدادت الحيرة على وجهه ..
تمنيت لو يتكلم .. لو يقول لى ما الذى دار بينه وبين طاهر ولكنه خطا ناحيتى
فى ابتسام وبدأ كأنه نسى موضوع طاهر .. وقال :

— مبروك ..

— لماذا ؟

قال وعيناه تبحثان فى إصبعى ..

— سمعت أنك خطبت ..

- قلت والضيق يخنقنى :
- لقد رفضت .. ولكن كيف عرفت ؟
- من يهتم بشخص يعلم عنه كل شئ :
- هو مهمم بى إذن ؟ لقد انتفى الكلمة الى أحبها .. توقف الحديث وتكلمت
العينان .. قالتا همساً كثيراً فيه حب وحنان وعطف .
- عاد يقول :
- لم تخطبى إذن ؟
- لا ..
- إذن أستطيع مكالمتك فى التليفون ؟
- قلت فى فرح :
- سأنتظر مكالمتك ..
- ليكن فى الرابعة ..
- سلم ومضى .. وهدأت الزواجع فى داخلى .. وازدهر شئ فى قلبى ..

طلست في الرابعة يجوار التليفون أنتظر مكالمة أحمد ..

أنا أحب هذا الوقت من النهار .. إنه ليل مضيء .. استعار هدوءه من
هدأة الليل .. وسرق خدر النوم من سواده ..

أنا أعبد هذا الوقت .. فالكل ينام إلا أنا .. أنا التي أظل العقل الوحيد
اليقظ في البيت .. حتى شجرة الشمس تبدو ناعسة في حركة غصونها تراخ
وكسل .. وكأنها نائم يتقلب .. تسللت إلى صورة أحمد وكلماته ورحلت أفكر
في الفارق الاجتماعي الذي يفصل بيننا ..

أنا لم أحس ثرائى إلا من كلماته .. لقد ظللت طوال عمرى أتقبل هذا
الثراء وأعيش فيه كشئ طبعى في حياتى .. كلامع وجهى الثابتة .. وكيباض
بشرى الناصع ولكن ماذا يعنى الثراء عندي .. ؟ إنه لا يعنى أى شئ ..
أنا لا أشعر أنى أنتمى لطبقتى ..

أنا أشعر أنى غريبة في بلدى .. يتيمة الأم والأب رغم وجودهما ..
أنا لا أملك ثرائى .. ولكنه مسموح لى فقط باستعماله .. أنا لا أملك سوى
روحى ..

دق جرس التليفون فاحتضته وأصقته بأذنى .. وجاءنى صوته حنوناً
ودوداً يسأل أن أشاركه الاستمتاع بترهة قصيرة ..

وخرجت معه .. ومشينا بدي في يده .. وكلماته تعانق كلماتي ..
وخطواتنا تتوافق .. وتؤلف بإيقاعها على أرض الطريق نغمة عذبة في أذني
التي تعودت وقع أرجلي وحدي في كل طرق حياتي ..

اصطبغت نوافذ البيوت بالاحمرار .. واخترق السماء سرب من العصفير
وامتلأت نفسي بالجمال ..

تكلم أحمد عن عمله .. وعن سياحة البلد التي لا تعجبه .. أقيت إليه
بنصف اهتمامي وسرق جمال الطبيعة النصف الآخر ..

انتبه أحمد .. إني أردد « لا » و « نعم » دون فهم .. قال بشيء من الحدة :
— نجلاء .. أنت لا تصفين إلى ..

— آسفة يا أحمد .. فأنا لأحب السياسة .. ولكن ألا ترى معي كل هذا
الجمال ؟

— أراه .. ولكني أرى القبح أيضاً .. أرى الاستعمار والفقر والأحزاب
والفوضى والملك ..

— لماذا تشتم الملك ؟

— لأنه يسرق قوت الشعب هو وطبقة الأغنياء في البلد .

— كيف تقول هذا يا أحمد .. إن الأرض ملكهم ..

— أليس حراماً أن يمتلك إنسان ألف فدان ولا يمتلك إنسان آخر قوت يومه ؟

ثم انفجر فجأة : يجب طرد الملك .. يجب طرده ..

— ولكنك يا أحمد تتكلم عن أشياء لا يمكن تحقيقها ..

— بل مستحقق ..

— كيف ؟

— بإثارة الرأي العام .. بالكتابة .. بفضح الحقائق .. وكشف المؤامرات
التي تحاك لهذا الشعب المسكين ..
كان يتكلم في حرارة وانفعال .. ماذا يقول لو عرف أننا نمتلك أرضاً
شاسعة .. بحيواناتها .. وبالتالي الذين يعيشون فوقها ؟ .

جاءت أختي وزوجها في زيارة قصيرة إلى مصر .. وكانت (نهي) قد تغيرت تغيراً كبيراً يكاد يصعب على أن أتعرف عليها .. كانت قد اكتسبت شيئاً أجنبياً بشكل ما في حركاتها وطريقة كلامها .. بل أكاد أقول في ملامح وجهها ..

وعندما رآني زوجها بعد تلك الغيبة الطويلة نظر إلى غير مصدق أن الفتاة الشابة التي تقف أمامه هي نفسها نونو الصغيرة كما كان يسميني أيام خطبته لأختي . نظر إلى بدهشة غبية وقال ..
- لقد كبرت فجأة وأصبحت عروساً ..
وأردف بمرح ..

- تعالى يجازي أيتها العروس الحلو ..

جلست بجواره وبدأ يحكي لي حكايات كثيرة مسلية عن حياته بالخارج واستغرقتني دعاياته لبعض الوقت ثم سأله :

- قل لي يا أونكل .. ألا نستطيع أن نخرج الإنجليز من مصر ؟

- لا .. لا نستطيع .. ولكن مالك أنت والسياسة ؟ . ألا تعجبك دعاياتي ؟ .

انتظري سأحكي لك حكاية أخرى وقعت لنا حينما كنا في فيينا . كانت نهي .. ولكنني أحست أني أنفصل عن جو الجلسة بسرعة .. وأقف أفرج

بتجريد شديد على ذلك الرجل الذى بدا لى غريباً تماماً وكأنى لأعرفه .. لماذا
يصر على رواية دعايات ليس لها آخر ؟ . لماذا لا يريد أن يتكلم فى موضوع
جدى هل يظن أنى مازلت طفلة صغيرة ؟؟ .

نادتنى أختى لكى ترينى الهدايا التى أحضرتها معها من الخارج .. كانت
واقفة أمام حقيبة ضخمة مليئة بكل لون يخطر على بال .. أمسكت بثوب من
الصوف له زرقاء بديعة تسرق النظر .. واحتجت بلهد حقيقى كى أنترع عيني
من الفرق وسط تلك الزرقاء الخطرة ..

— جميل هذا الثوب يا ننى .

— أيعجبك ؟

— جداً ..

— خذيه .. إنه هدية لك .. ولكن لا تهمله فى الدولاب بعد أن تلبسه
مرة واحدة .. وتذكرى أنه صوف إنجليزى وتفصيل إنجليزى .. كلاسيك ..
قلت وأنا أضعه على جسدى أمام المرأة وأرى كيف يتوافق مع لون بشرتى ..

— لن أهمله فقد أحبيت لونه ..

— لم تقولى لى يا نجلاء ؟

— هه ..

— لماذا رفضت عادل .. ؟

— أألم أحب عادل أبداً .. بل أكاد أكرهه .. كم هو سخيـف ..

ضحكت ننى وقالت :

— معك حق .. إنه سخيـف تماماً كهشام ؟

— كهشام ؟ هشام أخى .. ؟

— أخفضى صوتك أتريدنيهم أن يسمعوك .. نعم هشام أخى .. لقد كانا
متشابهين فى كل شىء .. كلاهما مدلل .. ورأساهما مليئتان بالخافات ..
والنفاهات ...

الخافات .. والنفاهات .. كنت أسمع كلامها وأنا شاردة ..

— هل نسيت ؟ .

قلت فى حيرة :

— لا .. لم أنس ..

- تحدث أحمد في موعده .. تسلل صوته إلى أذني فأشاع البهجة في قلبي
- أوحشتني ..
 - وأنت أيضاً ..
 - وأنا أيضاً ماذا ؟
 - أوحشتني ..
 - ولماذا تقولينها بهمس ؟
 - أبداً ..
 - كيف أبداً .. أنت تخجلين مني ؟
 - أبداً يا أحمد ..
 - بل تخجلين ..
 - ..
 - أرايت ؟
 - ماذا رأيت ؟
 - صمتك هذا دليل على خجلك ..
 - قلت بلوم :
 - أحمد ..

— لا تغضبى .. و لآن ماذا كنت أريد أن أقوله ؟.. لقد نسيت تماماً !
آه تذكرت .. لقد حدثت أُمى عنك كثيرأ وهى تريد أن تراك مارأبك ؟..
— سيسعدنى ذلك .

— هل يناسبك بعد الظهر .. فى الخامسة ؟
— نعم .. إنه موعد مناسب فى مثل هذا اليوم الشديد البرودة ..
— ألا تحبين البرد ؟
— أنا لا أحب الشتاء ..

— لماذا ؟

— لأن اليوم قصير .. سريع .. مظلم .. وأنا أحب الضياء .. والظلام يقبض
قبى .. ربما لأن ه ه ه مات فى الشتاء .. فى ليلة مظلمة .
— لماذا لا تحاولين أن تغيرى نظرتك للأشياء .. أحياناً تبدو الأشياء جديدة
لهجرد النظر إليها من زاوية جديدة .. إن الاستسلام للنعود يقتل
أجمل مشاعرنا .

قلت وقد شعرت بشيء من التوافق مع الشتاء لأول مرة .

— أنا أحب حديثك يا أحمد .. إنه يصنع منى إنسانة حرة .

— كل ما أرجوه أن أراك سعيدة .

فى الخامسة تقابلنا ودخلنا إلى شارع هادئ مقوف بأذرع الأشجار
ومفروش بالظلام وتتدلى من وسطه أشعة الشمس . أشار أحمد إلى منزل
فى آخر الشارع وقال فى صوت عميق :

— هذا بيتى

شعرت من دفء كلماته بإحساس البيت .. أرسلت نظرى إلى حيث أشار
ورأيت بيتاً قديماً ذا باب تستدير نهايته فى نصف دائرة محكمة .. ولشرفاته

درازين حديدى مقشور الدهان ونوافذه تبدو كعيون متعبة شبه مغلقة ..
وواجهة المنزل تبدو كوجه عجوز عريق يحمل كثيراً من الذكريات ..
وتلتف حول المنزل حديقة رفيعة .. صعدت الدرجات وخيل إلى أن تلك
الجدران البالية المقشورة الدهان تكلمنى بكلام كثير حميم .

أجلسنى أحمد فى المدخل وخطا هو إلى الداخل .. كان المكان شديد
الهدوء .. وأحسست أنى أنفصل تدريجياً عن زمانى ومكانى .. وكأنى ولدت
من جديد فى تلك اللحظة وذلك المكان .. وكأن المكان له توقيته الخاص به
غير التوقيت العام هنا هدوء ، وسحر ، وسلام . هنا طمأنينة . دخلت أمه
دون أن أسمع لخطواتها وقعاً .. كأنها كائن أثيرى . نظرت إليها .. الطيبة
السادجة تجملها من رأسها إلى قدميها .. ويشيع منها بهاء البساطة .. سلمت
عليها بوجل .. وأخذت هى رأسى بحنان وقبلتها .. شعرت لأول مرة بالبنة ..
وأحسست أنها أمى وأننى أنتمى إليها . نظرت إلى فى ابتسام تتعرف على
ملامح وجهى ، ورأيت نفس النظرة الحزينة بعينيها . عالم حزين يطل
من خلف غلاف دموع متجمدة . نفس الحزن الذى بعينى أحمد . ولكن
لا . هذا حزن مستلم ، وأحمد حزنه نائر يشتعل بالتحدى .

قالت فى بساطة :

— مرحبا بك يا ابنتى .

أحسست من كلماتها البسيطة أنها تعرفنى من زمن وأن لى فى قلبها مكانة .
تلاشت الغربة المزمنة فى روحى لثوان .. وكان أحمد يخطو حولنا وفى
عينيه فرحة وهو ينظر إلى . قرأت أفكاره . إنه يتأملنى فى هذا الإطار الحديدى ..
إطار بيته ويسأل نفسه : هل أبدو لائقة فى هذا الإطار القديم ؟ .

ثم جلس إلى جوارنا وشمطنا حديث بسيط عن الجلو .. وكان أحمد يبدو
مستمتعا بوجودنا معاً .
وفي نهاية الزيارة عندما سلمت عليها لأنصرف تمنيت لو ضمتني إلى صدرها
الحنون وطوقتني بلراعيها .

كنت أجلس أنا وهو في كازينو خلوى على أطراف القاهرة ، وكانت الصحراء تمتد في صفرة لا نهائية حتى تلتقي بالأفق الوهمي البعيد ، والمهرم تتناول درجاته إلى زرقة السماء الصافية ، والشمس ترسل دفئها في حنان على الكون كله ، وأنا وأحمد نبدو نقطتين تحت أقدام الهرم .

قال أحمد وهو يستنشق الهواء : لـه رثيه :

- كم أحب هذا المكان . إنه هادئ .
- والشمس هنا رائعة وهي تختصر عند الغروب نفوس موتها اليومي .
- ولكنها تبعث من جديد كل صباح . أليس كذلك ؟ . إن موتها يخنق على ميلادها .
- إنها لا تموت .
- ليتنى أموت مثلها ، ويكون موتى ميلادى .
- أعجب الحياة إلى هذه الدرجة ؟
- نعم وأحب أن أعيشها إلى الأبد .
- بكل آلامها ؟ بكل تلك الأخطاء والشرور .. ؟
- نعم .. لأنى أشعر أن فى قوة هائلة تستطيع إصلاح الأخطاء والشرور وأحياناً ..

– وأحياناً ؟

– وأحياناً أشعر أنى ضعيف ، ضعيف جداً ، ولا حول لى ولا قوة .
– ومع ذلك أرغب فى الحياة .. فالحياة حلوة فى كل درجاتها .. حتى عذابها ..
أحب .. الحياة فيها جمال وروعة وسحر ..
– إن حبك للحياة يدهشنى .. فأنا لم أحب وجودى أبداً ..

– لماذا ؟

– لست أدرى .. كنت دائماً أحس أنى وحيدة فى عالم كله من الغرباء وأحياناً
أشعر أنى وجدت خطأ .. وأحياناً .. بخيل إلى أنى عشت هذه الحياة من
قبل .. أليس هذا مملاً أن ترى كل جديد قديماً فى عينيك ؟
– أنت تحيرينى . فى هذه السن ، وتلك الثقافة ، وذلك الجمال ، وتكرهين
الحياة ؟ أنت تملكين مفاتيح عديدة تستطيعين أن تفتحي بها كنوز حياتك .
ويوم تملكين إرادتك وتقبلين على الدنيا فى ثقة وإيجابية ستكونين أسعد
امرأة فى الدنيا .

هل أحمد يفهمنى ؟ هل يفهم حقيقى ؟

أمسك بيدى وأهدتنى عيناه حباً وقال :

– أتمنى أن يحىء هذا اليوم قريباً .. يوم تقولين لى : يا أحمد ، الدنيا حلوة
وأنا أتشبث بوجودى فيها .

سكت أحمد وبدأ سعيداً هادئاً وخفتت لمعة التحدى فى عينيه .

إن حديثى مع أحمد يساعدنى على رؤية نفسى من الداخل . لأنه يفتح لى
قلبه ويأخذنى إلى دنيا كلها حنان ، ويمنحنى فهماً وحباً كبيراً .

مرت أيام .. وأيام .. وأخذت زورق الحب وبعدت ، بل أوغلت في
 البعد عن عالمي .. وأصبح أحمد دنياي .. والمرأة التي أرى فيها جمالي والتي
 أتقبل فيها هذا الجمال وأفرح به .. وأصبحت أوجد من وجوده وأعيش فيه ..
 في حبه ، ولكن برغم أني أحبيته وبرغم أني أحسست أنه يحبني .. إلا أننا لم
 نتصارح بهذا الحب .. وزاد هذا من عنوبة العاطفة النامية في قلوبنا وأعطي
 لها أبعاداً عميقة .. أصبحت أحب أحمد وكل ما له صلة به .. بالجريدة التي
 يعمل بها .. طريقته في الحديث .. صوته .. شكله .. بل لم أعد أرى في ملامح
 الناس المختلفة سوى ملامح أحمد .. وفي أصواتهم سوى صوته .. لقد طبعت
 عيني كل الناس بشبهه وطابعه ..

وجاء الصيف . جاء الصيف الذي أحبه .. وأصبحت السماء زرقاء زرقاء
 بيضاء .. وأنفقت الشمس الكريمة حرارتها ببذخ على الكون .. وبدأ الأسفلت
 في الشارع يسيح .. ونما النهار وامتد داخل الليل وسرقه .. وأزهرت
 الأشجار على جوانب الطرق .. وأصبحت قممها تبدو على البعد متوهجة
 مشتعلة .. وبدأ الناس أكثر حياة وأكثر مرحاً ..

تقابلت مع أحمد في المساء على ضفة النيل .. نظرت في عيني .. كانت
 عيناه مليئين بالتحدى .. غلب التحدى على مشاعر الحزن والقلق المقيمين

أبدأ في عينيه .

تكلمت أفتح موضوعاً لأبعد قدر إمكاني عن النار الخابية في نفسه والتي
تتظر كلمة لتشتعل ..

- سأطلب إجازة في الشهر القادم لأننا سنسافر ..

- إلى أين ؟

- إلى الإسكندرية .. ثم إلى جدي في العزة لبعض الوقت ولو أنني أفضل
الذهاب إلى العزة رأساً لأنني أحب الريف .. أحب رائحة عيدان الخطب
وأحب التوقيت البطيء الذي أدخل في رحابه بدخولي العزة .. هناك الشمس
أكبر والدنيا أوسع .. وهناك أستطيع ركوب الحصان « كونت » وأطير به
عبر الحقول .

نظر أحمد إلى وضحك ساخراً ..

- تتكلمين عن الريف كأنك إحدى السائحات .. كأنك لست مصرية ..
قلت بدهشة :

لماذا تتكلم هكذا يا أحمد ؟

قال وقد تسربت إلى نبراته مرارة :

- لأنك إقطاعية صغيرة .. تذهبين إلى العزة لترفهي عن نفسك بالتفرج
على عشرات الفلاحين وهم يعزقون الأرض . تنظرين من عليائك من
فوق الحصان إلى دود الأرض .. إلى الفلاحين وهم ينثرون الحبوب لتطرح
أموالاً ..

وملأ الغضب وجهه كله وسأل :

- ماذا قلت ؟ أمم الحصان كونت ؟؟ حتى الحصان اخترت له لقباً فرنسياً !
« الكنتاب المصرية لا تعجب حصانك فيما يبدو ..

قاطعة مدافعة عن نفسى :

— ولكنى لم أقل لى أراهم دوداً من دود الأرض . أحمد أنت تضع كلاماً على لسانى لم أقله ..

— تصرفاتك تقول بأفصح مما يقول لسانك .. طريقة كلامك .. نظراتك المتعالية .. كلماتك القرنسية .. هل تعرفين معنى أن تكونى فلاحه ؟ معناها الجوع والفقر .. والمرض .. والطين حتى الركبتين .. معناها أن تمزق كفالك وتشقق قلبك وتشوى الشمس بشرتك الريانة الطرية .. معناها ألا تعرفى الأمان أبداً .. أتريدن مثلاً لهذا الفلاح ؟ . هاهو أمامك .. أنا أحمد إبراهيم الفلاح ابن الفلاح .. أنا واحد من ألف فى قريتى استطاع أن يتعلم إلى النهاية .. مادو العلم بالنسبة لك ؟ .. ترف . وغرور .. وحذقة . ودليل ثراء ووجاهة .. ولكن العلم بالنسبة لأمثالنا طوق نجاة .. ومرغاً أمان .. وحياة .. ماذا تفعلين بالخمسة عشر جنبها التى تأخذينها من عملك ؟ . تشترين بها حذاء جديداً لرميه بعد أن تلبسه مرة واحدة .. إنها أجر السائق الأسود الذى يزين به أبوك عربته .. لماذا لا يقود هو وأنت ؟ . لماذا تجلسين بجوار السائق ؟ . تنازلاً وتواضعاً .. أنا أمقت هذه الطريقة التى أنجيتك .

تخسر صوتك وسكت . محال أن يكون أحمد يعنى كل هذا الكلام . محال أن يكرهنى كل هذه الكراهية . قلت :

— أحمد ماذا يفضلك اليوم . قل لى ؟
انطقاً التحدى بعينه .. وظهرت الطيبة الحلوة فى ألوان نظراته العديدة ثم ارتسم الحزن فى أحلك درجات سواده .. وتكلم فى أسى .. قال :

- نبلاء .. لقد أغلقوا الجريدة ..
قلت في دهشة ..
— كيف .. لماذا ؟ ما السبب ؟
أكل ...
— هاجم رئيس التحرير الملك فأغلقوها .. وصادروا الأعداد .. واعتقل
رئيس التحرير .. وربما اعتقلوني أنا أيضاً ..
— صرخت :
ماذا .. كيف .. ألسن حرراً نكتب ما نشاء ؟
قال في سخرية :
— ألم أقل لك إنك سائحة ؟
— أحمد لا تسخر مني .. أحمد .. لا أحد يستطيع أن يعتقلك .. قل لي
أن لا أحد يستطيع أن يمسك ..
قال في ابتسامة :
— حسناً .. لا أحد يستطيع أن يمسني ..
— أحمد .. لا تكذب علي ..
— أيهمك أمرى إلى هذا الحد .. ؟
— بالطبع ..
— وماذا عن المئات والألوف الذين في السجون .. ألا يهمك أمرهم أيضاً ؟
قلت في حيرة :
— يهمني ولكن ماذا بيدي ؟
— بيدك الكثير .. تستطيعين أن تثوري .. وأن ترفضى هذا الحكم .
قلت في حيرة أكثر :

— كيف ؟

— على الأقل بينك وبين نفسك .. إن عدم مبالاةك بما يجري حولك من أمور بلدك خطأ كبير بل جريمة حتى في حق نفسك .. وحق وطنك .. أن تقول أنت .. ويقول هو .. وتقول هي .. ويقول مائة وألف .. ومليون و٢٢ مليون هذا ليس شأني .. وما دخل .. هنا الجريمة والمأساة .. إن الثورة هي أن يثور كل واحد .. وساعتها سوف يخرج الملك وسيخرج في أثره المستعمر ..

— أنت على حق يا أحمد .. ولكن ماذا أستطيع أن أفعل وأنت تكرهني كل هذه الكراهية ؟

قال في هلع مفاجئ ..

— أكرهك ؟ .. هل قلت إنني أكرهك ؟ .. وهل أستطيع ؟ .. هل يمكن ؟ .. نجلاء .. أنا أحبك (أمسك بيدي وأكمل) أنا لا أكرهك ولكني أكره سنوات عذابي .. أكره طفولتي الشقية .. أكره طبقتك التي داستنا وداست على آمالنا .. ولكن ما ذنبك أنك من هذه الطبقة ؟ .. لماذا يدفع قلبك النبيل ثمن خطايا لم يرتكبها ؟ .. نجلاء .. أنت مظلومة مثلي ..

قلت وقد تحولت إلى رعشة حنان :

— وأنا أحبك .. ولكن لا تقل تلك الكلمة مرة أخرى .. لا تنطق بهذه اللفظة القبيحة .. الكراهية .. انحنى أحمد على يدي وقبلها في وجد ..

في هودتي إلى الفيلا نبت في قلبي خوف من ثورة أحمد .. وكلماته المريرة مزقت حرير عواظي .. لماذا تكلم أحمد بتلك المارارة ؟ .. وكيف استطاع أن يكون بتلك القسوة ؟ .. لقد أزعجتني قسوته .. زلزلت مشاعري .. ولكن

صارحته بحبي أنا الأخرى بعدها ؟ . أنا لم أحس بالبحر إلا بعد مدة .. بعد
أن بدأ قلبي يترف ألاماً ..

دققت جرس القبلا ففتح لي السفرجى الباب .. ودقت ساعة البهو في
تلك اللحظة .. وارتفعت ثرثرة ، عبده ، في أذنى وشعرت بهذه الضجة
المنغومة تحملنى إلى دنيا الأمان ..

— الست والبلك عند شريفة هانم لأنها وضعت ..

جاءنى صوته كضباب كلمات ليس لها معنى حقيقى ..

صعدت إلى حجرتى .. إلى أصدقائى الأشياء .. ستاثرى المسدلة ومصباح
قراعتى ووسادتى .. واللاوحة المعلقة فوق فراشى .. أصدقائى الأشياء ينظرون
إلى ويعلمون كم أنا حزينة حيرى فى أمر أحمد ...

جلست على حافة الفراش وتحسست نعومة ملمسه .. واحتضنى الأمان
وأنستنى الوحدة ...

ذهبت مع أمي في الصباح إلى شريفة في المستشفى .. دخلنا إلى الحجرة
اليضاء في الجناح الكبير .. وفي الفراش الصغير كانت ترقد شريفة نعمة
شاحبة . اقتربت من الفراش وانحنيت على وجنتيها أنمهما .. ويبدو أن قبلي
هزت مشاعرها فانهمرت الدموع من عينيها وغمغمت تشكو إلى ..

— بنت يا نجلاء ... مرة أخرى بنت ..

ربت يدها أواسيها وأقول لها :

— كل ما يعطينا الله جميل ..

ولكنها استرسلت في البكاء .. وراحت أمي تواسيها وتمنيها .. بمولود
ذكر في المرة التالية .. وخيم علينا الصمت .. كل واحدة سارحة مع أفكارها.
شريفة تحلم بمولود ذكر .. وتشعر أنها مذنبية لأنها لم تنجب الوريث الذي كان
يتظره زوجها ليورثه ثروته .. وأمي سارحة في أشياء بعيدة لا أعرفها ..
وأنا حزينة من أجل المرأة في بلدي .. أتساءل .. هل خلقنا نحن النساء من
أجل أن نصبح أدوات تكاثر وتناسل .. نلد ونرضع .. ثم لا شيء بعدها؟.

عند خروجي مع أمي من المستشفى خرق أذني صوت ولدين يتصافعان
بالشتائم .. وفي الثواني القليلة التي استدار فيها مرغني السائق بالعربة ليأتي

أمامنا .. أحصيت عشر شتائم .. كل من الولدين يحقرأم الآخر لأنها امرأة.
ما بال الرجل لا يحقر نفسه أيضاً ؟. أليس هو ذاته ابناً لامرأة ؟
شعرت بأني أتضائل وأن هذه الشتائم تدهشني .. وتلوسني أنا الأخرى ..

مر يوم وآخر ولم يتكلم أحمد .. لم يسأل عنى لا فى العمل .. ولا فى ميعاد مكالمته اليومية فى متلئ ..

طلبتة فى المتزل فلم أجده .. رد على رنين ساخر يضحك من عواطفى .. أين أحمد ؟ لماذا لم يتصل بى ؟ . ترى هل اعتقل ؟ . كيف لم أفكر بهذا من قبل ؟ . ولكن هل ممكن أن يعتقل ؟ . داهمنى خوف شريب وعصر قلبى .. بقسوة سارعت أطلبه لأول مرة فى الجريدة فلم أجده أيضاً .. انتظرت شهوراً من انشوائى وسنين من الدقائق .. أن يتكلم هذا الصامت فى الركن .. أن يصرخ ويملاً الفرقة برنينه المفرحان . أمسكت بالعمامة مرة أخرى و طلبته فى أمل .. وفى تلك المرة سمعت صوته الحلو يرد على ..

صحت بلهفة ...

— أحمد أين أنت .. لماذا لم تتصل بى ؟

رد ببساطة ..

— كنت مشغولاً ..

— مشغولاً إلى درجة ألا تكلمنى يومين ؟

— فقط كنت مشغولاً ..

— ولماذا هذا الضيق .. إذا كان يضايقك أن أسأل عنك فلن أسأل ..

— نجلده لماذا يبدو صوتك مخنوقاً ؟

— ليس مخنوقاً ..

— ما بالك هل أنت غاضبة منى ؟

— نعم ..

— لماذا ؟

— لأنك أصبحت قاسياً ..

— أنا لست قاسياً .. قولى إنك لست غاضبة ..

— لست غاضبة ..

وأردفت وأنا أبتلع كبريائى :

— هل أستطيع أن أراك اليوم ؟ .

— نعم موعدنا فى الكازينو فى الخامسة ..

— إلى الخامسة إذن ..

وضعت السماعة .. ومسحت يدي على وجهى فوجدته مبتلاً بدموعى ..

إن مجرد كلمة قاسية من أحمد فجرت ينبوع الحزن من عيني .. ولم أشعر
أنى كنت أبكى طوال مكالمتى له .. لماذا لم يسأل عني يومين ولماذا لم يقل فيم
كان انشغاله ؟ . إنه لم يكلف نفسه مشقة انتحال عذر .. أى عذر .. لال
أذهب إليه .. سأكلمه وأعتذر له عن عدم الذهاب .. لماذا تسرعت وطلبت
مقابلته ؟ لماذا فرضت نفسى عليه ؟ . ما أسخفنى ! .

اليوم الحياة تضجرتنى رغم وجود أحمد فيها .. ورغم محاولته إقناعى
أن الدنيا حلوة .. ظل الصبح يطاردنى وشعرت أنى معتقلة داخل نفسى ..
داخل صدرى وظهري ورأسى وأطرافى .. عيناى نافذتان ضيقتان أنظر
منهما من سجن جسدى إلى العالم الخارجى ولكنى لا أستطيع أن أتجاوب معه ..

وكأني منفية داخل عذابى وجحيمي وقد فقدت التجانس مع جميع الأشياء..
كنت في حاجة إلى يد تخرجني من داخل .. أحمد كان يلوح بيده ولكنه
يعود فيسحبها ... ويتركني أهوى وأغرق .. صوته يأتيني خافتاً بعيداً هو
الآخر ..

أنا وحيدة .. وحيدة .. والعالم أجمع والمجتمع والناس وأحمد يبعدون.
يبعدون ويوغلون في البعد والغربة . لا أحد قادر على استصدار عنو عن روي
لترجع فتحس أن جسدها هذا هو وطنها الصغير.. روي مغربة منفصلة
انفصالاً تاماً عن جسدي .. الملل يغزوني والتكرار يقتلني .. إن مجرد تصوري
أنى سأعيش وأموت مثل هذه الشجرة الوحيدة في الحديقة .. أسقط في مكاني..
وأنتهى نهاية خرساء .. هذا التصور يفزعني .. لماذا لا أترك كل شيء وأسافر
إلى (نهي) في إيطاليا ؟ . ربما وجدت نفسي في المجهول .. لو أستطيع أن
ألقي ذاتي وأولد من جديد في مكان آخر وزمان آخر ؟ . زمان آخر ..
زمان آخر .. ربما ولدت في الزمان الخطأ .. إن كل شيء يبدو غير متجانس
روحي .. لماذا لا أسافر إذن .. وأترك أحمد وكل شيء ؟ .

ما هذه الأفكار ؟ . ما أنا إلا هاربة .. هاربة من بلدي .. من أهلي ..
من نفسي ومن حبيبي .. ولكني لم أكلم أحمد ولم أعتذر له عن الموعد
بل غمرتني فرحة أخجلتني .. لأنني لم أعد أستطيع العيش بدوني .. إن مجرد
تخلي دنياي بغيره مستحيل .. مستحيل ..

في الخامسة تماماً كنت هناك في الكازينو أنتظره .. اخترت متصلة على النيل مباشرة وجلست وأخذت أنظر إلى الكون وإلى تلك الرواة من المياه التي تتره أمامي بين الضفتين .. جلست أفكر .. ليتني نقطة في هذا النهر العريق .. ليتني هذا الطائر الشريد الصغير الذي يقفز فوقه من ناحية إلى أخرى .. ليتني تلك السحابة المصبوغة بالاحمرار .. أو تلك النسمة المحملة بدفء الربيع .. ليتني هذا الضباب الزجاجي الشفاف . ذلك الرداء الذي يغلف النهر والضفاف وهامات العمارات والكون يبدو من خلاله سحرياً لماعاً غير حقيق .

آه لو أتخلل إلى ذرات غير مرئية تحتوى على حرية الحركة ؟

ها هو أحمد قد آتى أخيراً بعد نصف ساعة كاملة يعتذر كأنه لا يعتذر ويجلس وأنظر إليه ويتحدث إلى .. ويأتيني صوته عبر أذني كصوت غريب أسمع لأول مرة ولا أألف به .. أملك يدي لمس جسدي ولم يلمس روحي .. لم يهز أعماقي .. إنه هو الآخر بعيد اليوم عني وأنا أحس الضياع ..

مقط الصمت بيننا وأقصى كلامنا داخل نفسه .. مددت صوتي بكلمة تصافح صوته وتبعد الغربة عن جلستنا ولكنه لم يرحب بها .. رداً مقتضباً مع وحدتي وراح في غيوبة فكره ..

لماذا هو بعيد اليوم عني ؟ . ولماذا لا يتحدث ؟ . ولماذا خصام الصمت
هذا ؟ . إن قسوته لا حدود لها .. لماذا لا يتكلم ؟ .

قال أخيراً :

— كيف حالك ؟

أنا أكره تلك الكلمة المهلهلة التي يستعملها الآلاف كل يوم.. ولكنني
أجبت بنفس الكلمة الممزقة :

— كيف حالك أنت ؟

ولم أستطع منع نفسي من أن أضيف ..

— هل يضايقك شيء يا أحمد ؟ .

— لا .. لماذا ؟

— فقط .. أنت لست كمعادتك ..

— كنت متعباً .. مريضاً ..

قلت ولطفة تدفع بنفسها برغمي إلى صوتي :

— مريض .. ؟ ماذا تشكو .. أنت لم تقل لي شيئاً ..

— لم يكن مرضاً حقيقياً .. لم يكن شيئاً ..

سكت وسكت وبدأ الضيق يترجم نفسه دموعاً تكون خلف عيني

لتضخني بالبكاء .. لالز أقول له إنني قررت السفر لهدأ .. إنه يبدو على

أى حال غير مهم بي .. ولن يهتم بالتالي لسفري .. هل أقول له ؟ بالتأكيد

سيرد بصوت هادئ ليس فيه توتر الحب ولطفه .. ربما يرد هكذا .. حقاً

سنافرين ؟ . مع السلامة .. لالز أقول له شيئاً ..

قلت قبل أن تنسكب الدموع من عيني وتضخني ..

— أحمد شريفة ابنة حالي التي وضعت منذ يومين والجميع يتظرونني

في المستثنى يجب أن أقوم الآن ..
قال كأنه صدقني ..

— حمداً لله على سلامتها ..

— شكراً ..

ومشيت أتعثر في نعاستي إلى الباب لأختني في سيارة أجرة نحملني إلى البيت .. لماذا يبعد أحمد عني وتفارق يده يدي بلا مبالاة ؟ . لماذا تموت أفراح الاهتمام بعينه ؟ . ولماذا يقفل على روحه متاريس العزلة ؟ . لماذا يترك يدي مملودتين في استجداء ويصفع خنائي ؟ . وأنا أتجمد وقدماي تلتصقان بالأرض والسلاسل تحكم الرباط حولهما وتسد أبواب الخلاص في وجهي .. وأموت يبطء .. يبطء ..

كل شيء يضجرتني .. الحياة .. الطبيعة .. لون الزرقة الباهت في السماء والاستسلام في وجوه الناس .. والركود .. الركود في كل شيء ..
قضبان غير مرئية تحكم الرتاج حولي ..

حياة العمل تحولت إلى رتابة .. وأصبح الذهاب إلى العمل كل يوم يزعجني . تقول لي نادية : صباح الخير ، بنفس نبرة صوتها المعدنية .. وأرى وجه حسين الساعى بنفس تعبيراته المسكينة .. حتى الضوضاء في المكتب أصبحت إحدى ملامح كل يوم .. وكأنها من آثار أقدام دب يلف في قفصه .. تخطو قدمه في كل مرة على آثار أقدامه السابقة ويظل يلف .. ويلف .. وينسى أنه يلف ويعود يلفهن جديد .. حياة قديمة مسرقة في القدم .. عجوز ..

وسافرت إلى المصيف دون أن أقول لأحمد .. مضت العرببة تكتسح الطريق تقربني من الإسكندرية وتبعدني عن القاهرة .. عن أحمد ..

في حجرتي الصغيرة بالفندق وقفت أنظر إلى أشياء .. التي سأعيش
معهما فترة الصيف ..

هربت بنفسى إلى الشاطئ وحاولت أن أتذكر طفولتى وملاعب صباى
على رمال الماضى .. ولثمت الشمس وجهى وأحالت رمال الشاطئ الناعمة
وقواقه المهشمة إلى طريق متوربالفضة معبد بالآلاف من حبات الخرز المضيئة
الملونة .

تخللنى هواء البحر وتخلل ذكرياتى .. وتكسرت عشرات الأمواج
تصافح قدمى فطالما عرفتنى طفلة ألهو عند الشاطئ المتعرج ..
ثم عادت براقع السحب تظلل وجه الشمس ثم تلفه وتفرق به وراء الأفق
وانتهى مشهد الاحتضار اليومى للشمس .. وتذكرت من جديد كلمات
أحمد ومضيت راجعة من نفس الطريق ..

جاءت بنات عمى مع اليوم الجديد ليأخذنى معهن إلى الشاطئ .. فرح
أبى ورحبت أُمى ..

— أهلا بنات اسكنترية .. ألا نراكا إلا من السنة للسنة ؟

ردت سهير :

— لماذا لا تأتون في الشتاء يا عمى .. إن الإسكنترية في الشتاء بديعة ..

— وما حيلتنا في الأعمال التي تشغلنا طوال الشتاء .. المهم ها هي نجلاء معكم ..

امرحوا معها .. ولكن أين ماجد .. ؟

— سيحضر بعد الظهر ..

— هيا يا نجلاء اذهبي مع بنات عمك .. متى تعودين ؟

قالت سلوى ..

— ستبقى اليوم في الكاين يا عمى .. أرجو أن تسمح لنجلاء بقضائه معنا ..

قلت :

— سأعود في المساء إذن ..

— هيا بنا ..

وأخذنى إلى الشاطئ .. إلى البحر الذي أحبه .. إلى غموضه وثورته

وموجه .. وحركته .. وألوانه المتعددة .. والرحابة التي تمتد أمام بصري

والتي لا يحدّها إلا الأفق الوهمي البعيد .. وإلى صوته الذي لأمل سماعه ..

جلست سهر أمامي مريحة سعيدة بلا سبب وراحت تنتقد كل من يمر أمامها وتضحك منه .. وأبدت إعجابها بالبنطلون القائم الذي أرتديه وقالت إنها ستشترى مثله في الغد .. وسألت نفسي .. كيف يمكنها أن تكون بمثل هذا المرح وتلك السعادة . أعتقد أنها لا تفكر تفكيراً جدياً في أى شيء على الإطلاق ..

— أهلاً نجلاء .. ما هي أخبارك ؟

— أهم أخباري أنني توظفت ..

— توظفت .. توظفت في ماذا ؟

مرت شلة .. من صديقات سهر وسلوى تقامتا متكلمات معهن وقال ماجد :

— هل تحبين أن تمشي قليلاً ؟

— لا مانع .. هل تأتين معنا يا سهر ؟

كانت مشغولة بمجموعة من الصور التقطت لها في البحر وعلى الشاطئ فلم تنجب .

ومشيت أنا وماجد . كان الوقت قد أصبح بعد الظهر والشاطئ شبه خال من الناس .. خلعت الصندل وثبيت البنطلون إلى أعلى ومشيت في الماء .. ولأمست الأمواج قدمي وتصاعدت رائحة البحر إلى أني وملأت نفسي بمتعة لا حد لها ورجع ماجد يتحدث عن العمل ..

— هل اشتغلت حقاً ؟

— نعم .. لماذا أنت مندهش ؟

— أنا مندهش فعلاً فلماذا تتعجب نفسك بالعمل والمادة متوفرة والحالة ميسورة ؟

— أنا لا آخذ من العمل الجانب المادى فقط .. إن تجربة العمل فى حد ذاتها تعمق شخصيتى .

— وهل تجربة العمل وحدها هى التى ستعطى لشخصيتك العمق ؟ أمامك الحياة مليئة بالتجارب وإذا طلبت من أهلك أى مبلغ فإنه لن يتردد فى إعطائه لك ..

— أطلب .. أنا لا أريد أن أطلب .. لقد كبرت .. وأنا أريد أن آخذ مقابل ما أعطى .. ماذا أعطى لوالدى مقابل ما آخذ منه ؟ بنوقى .. أنا لا أعطيه هذا مختارة .. لقد وجدت نفسى ابته .. هذه علاقة تخلو من الحرية. إنى لا أجد حرية إلا فى الحب والصداقة .. فأنا لا أعطى حبى إلا للشخص الذى يعجبنى فعلا .. ولا أعطى صداقتى إلا للشخص الذى أرى أنه يستحقها ، ثم فى الصداقة الحقيقية حرية لا حدود لها .. أتعلم ما الذى يجعلنى أعملك بالعمل ؟

— ماذا ؟

— لأنى أحاول عن طريقه أن أجد مبرراً لوجودى ولكى أبعد عن تفكيرى أن الحياة سخافة كبيرة ..

— سخافة كبيرة ! . ماذا تقولين ؟ أنا أراها متعة كبيرة ..

— أنا لا أراها كذلك ..

— وكيف ترينها إذن ؟

— أنا ما زلت أبحث عن معنى لحياتى .. أتمنى أن أفهم الحياة وأجد لها سبباً ..

— لماذا توجعين رأسك بالحميل بتلك الأسئلة الفلسفية ؟

ورفع إلى وجهه ونظر إلى بملء عينيه ..

كان ينظر إلى كفتاة حلوة فحسب .. ما أبعد الفارق بينه وبين أحمد ..

رجعت إلى الفندق متعبة حزينة .. مررت آخذ مفتاح حجرى فأعطوني رسالة عرفت في الحال خط أحمد فوق الخطاب .. دسسته بسرعة في جيبي وتبخر تعبي كأنه كان وهماً .. تمهلتي في فضاء الخطاب .. واستعذبت انتظاري. ولكن ترى كيف عرف أحمد عنواني ؟ . لابد أنها نادية .. وكيف تجرأ وبعث به إلى .. إن تلك المرأة تعجبني ..

دخلت إلى حجرى وأقفلت الباب بالمفتاح وجلست على حافة الفراش وقرأت كلماته ..

أيتها الهاربة مني .. ومن نفسك .. ومن القاهرة .. أين المفر ؟ لقد بدأ موج القلق يشف عن أعماقك ويكشف كل ما هو أصيل فيك .. والآن صارحني نفسك وقولي لما .. لماذا تقاومين حبي وتخفينه في قلبك وتهربين .. إن كبرياءك الكاذبة تعذبك .. فصارحني نفسك .. استعرضي عواطفك من جديد واعلني حقيقة واحدة هي أني أحبك ..

أحمد إبراهيم

يقول إنى أقاوم حبي وأخفيه .. ومتى كان الحب يتحى ؟ . إنه في نظرات عيني ، في لمسات يدي .. في نبرات صوتي .. وفي همس باسمه .. كيف أستطيع الهرب منه وهو كل فكرى .. وهو كل الناس حولي .. وكل أشيائي ؟ .

هو يتجسد في الوسادة التي أحضرتها .. وفي الحائط الذي أنظر إليه .. يطل
على من كل زوايا البيت والشارع .. ينبض مع الدم في قلبي ..
هذا القلب أصبح منطقة نفوذ تابعة له تتلقى أوامرها منه .. من مالكتها ..
انقسمت في داخل إلى اثنين متصارعين يكره الواحد الآخر .. ويحبه ويعبده ..
أنا وهو ..

قمت إلى المرأة لأثبت لنفسي أني شخص واحد ولست شخصين .

إن بيني وبين أحمد صراعاً طبقياً . إنه لا ينسى أني من طبقة السادة الذين
امتلكوا كل شيء وأنه عاش معلماً .. ولكن ما ذنبي ؟ . لماذا يتقاضى مني
عذاب السنوات التي عاشها ؟ . وعادوني حينئذ الجحافل إليه بعد أن صفيت
حسابي مع نفسي ومعه .. عادوني حبي له كأقوى ما كان ..

— إن الحب هو الشيء الوحيد بلا منطق .. إنني أحبه لأنني أحبه .. إن قلبي
يحبه وعقلي يعبده ويرفض مجرد التفكير في شخص آخر ..
إن حبي يفرض التوحيد على قلبي ويأبى الإشراف ..
كيف احتملت هذا البعد .. وفيم كان غضبي منه ؟ . إن غضبي يبدو
شيئاً بعيداً كأنه لم يكن .. لقد عاد فأصبح كل شيء .. امرأة وجودي .. ومحور
إبصارى وسبب جمالي ..

وأصبحت أيامي انتظاراً .. انتظاراً ليوم رجوعي إلى القاهرة .. إلى أحمد
جلوسي مع الآخرين أصبح صمتاً ، ونظراتي أصبحت تتخللهم لتغرق في
التفكير فيه .. وغمرني إحساس قوي بأنني أريد أن أبقى وحيدة .. فقط مع
خياله .. إن شخوص صورته أمامي ومثول خياله يحقق لي هدوءاً داخلياً
واطمئناناً وسكينة .. للدرجة أكاد أغفو معها من كثرة الهدوء .. أريد أن
أسدل جفوني على رسمه وأبقى هكذا إلى الأبد .. كلماته الصريحة البسيطة

يلوكها تفكيرى كالحلوى .. وبمفظها قلبى كأبيات من الشعر المتحرر الذى
كسر كل القيود ..

وأخيراً وبعد طول انتظار رجعت إلى القاهرة وإلى حجرى .. إلى
فراشى وستائرى ومرأتى ، إلى أحمد ..
تقابلت معه عند الكازينو ووجدته واقفاً أمام الباب سأله ..
- ألن ندخل ؟ .

- لا تعالى نذهب إلى مكان آخر ..
ركبنا سيارة أجرة .. أمسك أحمد بيدي .. وظللت أنظر إليه .. كنت
لا أريد أن أضيع لحظة واحدة فى النظر إلى شيء آخر سواه .. اشتبكت عينانا
فى عناق حنون ورفع هوى إلى شففيه يترجم حبه إلى ثمات .. وجرت بنا
العربة فرحة بلاقائنا ..

وفى الصحراء وقفنا .. أحمد وأنا .. أخذ رأسى بين يديه وراح يتعشق
عينى .. اقترب ببطء بوجهه منى ولأول مرة منذ حبنا قبلنى .. بدأ بلشمة
خفيفة على الوجنتين ثم زحفت شفاته تحتضنان شفتى وهمستا بكلمة الحب .
- كيف تركتك تبعدين عنى ؟ . لن أتركك بعد الآن .. أنا لا أستطيع أن
مرة أخرى ..

- أحمد لا تتركنى ..
- لن أتركك تلهين .. أنت حبيبى .. أنت أنا ..
همست بهيام ..
- حبيبى .. حبيبى ..

نهت بين الأحضان الحنونة .. ونسيت للحظة أنى تركت له جسدى يعنصره
ونسى عقلى لوهلة أن ما فعلته ذنب .. استسلم هو الآخر لفيض الحنان من

الآثام والضمائم المشتاقة .. ولفنى أحمد بين ذراعيه .. وأراح رأسي على صدره وبدأ عقلى يفتق من دوار الحب .. وبدأ يحسب أخطائي .. وداهمنى شعور بالذنب فشوه سعادتي وأنزله من عليائها ..

غمرنى أحمد بنظرات تحتوى على عواطف عديدة متداخلة ملتوية .. من حب رجل .. وحنان أب .. وعناد طفل .. ويزاوج بين هذه العواطف عذاب دائم .

إنه يتعذب حتى وهو سعيد .. إن العذاب الحزين لون يدخل تركيبه فى كل ألوان عواطفه المختلفة فيصبغها .. يصبغ الإحساسات المضيئة بالظلال .. وأحياناً بالسواد .. وقفنا ينظر كل منا فى عيني الآخر ونقرأ أعماقنا ..
همس أحمد :

— نجلاء لماذا يشوب نظراتك قلق .. أنتجلين من عواطفك ؟
همت أعترف :

— نعم إن الشعور بالذنب يشوش على لحظات حبي .. ويسقطنى من حالق سعادتي إلى حضيض التعاسة ..
قال بدهشة :

— نجلاء أنت تستمددين احترامك منى وأنا أحترمك وأضعك فى أغلى ما عندى أضعك فى قلبى وعقلى وأبخل بك على نفسى .. حببني لا تنجلي منى ، أنا أحبك ..

— أنت تحترمني ولكنى أنا فى داخلى شخص آخر لا يحترمنى .. شخص يعذبني ويلهيني بسياط الاتهام .. أنا أحترق من الداخل ..

— مازلت حائرة يا حبيبتي .. إن الشخص الذى يثق بذاته يضع لها دستوراً يخطو على هديه وأحكامه .. فلا يعود مهزوزاً .. ولا يقف أمام نفسه

موقف الاتهام ..

— نعم مازلت حائرة يا أحمد ..

— يجب أن تتخلصى من تلك الحيرة ..

— أنا أحاول ولكن هل سأستطيع ؟

— لو كانت عندك شجاعة .. أتذكرين قصص الشجعان التي كانت نحكى

لنا في طفولتنا ؟ إن الشجاع لا يصل إلى الكثر إلا بعد مصاعب جمة ..

وطرق عديدة يصارع في أثنائها وحوشاً عديدة .. الوحوش المادية التي

تصورها تلك القصص ليست في الحقيقة سوى وحوش داخل أنفسنا والكثير

هو رمز وجائزة للانتصار على النفس وسيطرة على عنائها .. ولا شيء

بلا مقابل . لكى تشتري يجب أن تدفعى مقابل ما اشتريته نقوداً ..

ومقابل أن تجدى شخصيتك يجب أن تدفعى تجارب وضريبة

تحمل مسئولية الخطأ والصواب .. مشكلتك عدم ثقة بنفسك .. وعدم

تحمل للمسئولية ..

— لا شيء بلا مقابل هذه دعوة مادية يا أحمد ..

— نعم .. أنا مادية .. لماذا تنظرين إلى هذه النظرة ؟ أنا أكبر وأكثر

تجارب منك .. إنك تحبين فى أولى تجاربك ..

إن كلماته تقص أجنحة خيالى وتعوقنى عن التحليق ..

قرأ فى تقطيع وجهى تفكيراً عميقاً .. قال يداعبنى :

— لماذا هذه المموم على وجهك الجميل ؟ .

— أنا أحاول .. أحاول أن أفهمك ..

أسدل الظلام أستاره .. طلبت من أحمد الرجوع إلى البيت ..

ابتداء من الغد أعود إلى حياة الملل والرتابة والتكرار والحلقة المفرغة ..

في المساء كلمتني شريفة . كان بصوتها شوق كبير وأبدت رغبته في أن
تراني سألتها عن مولودتها فعاتبتني لأنني لا أزورها .

وأمام مهد الصغيرة وقفت أتأمل تلك الكتلة الغريبة من الحياة ..
كيف لا تكون هذه المولودة اللطيفة مبعث بهجة وحب بين قلبي شريفة
وزوجها ؟ .

سألت شريفة ..

— أكنت تفضلين أن تكون مها ولداً يا شريفة ؟

تراحت لي حيرة في عينها وأجابت :

— كنت أتمنى قبل أن أراها لو كانت ولداً .. ولكني الآن متمسكة بها ..

— ولماذا تحببتها ولداً .. ؟

— إن الولد شيء آخر .. إنه رجل .. إنه رب البيت .. وهو كل شيء ..

شريفة ترد ردوداً قاطعة تحيرني .. ونساءلت مرة أخرى ما الذي يميز
الرجل ويعطى له كل تلك القوة والسيادة ؟ . وما الذي يجعل له الكلمة العليا
والمقدرة على إسعاد أو إتعاس المرأة التي تحبها معه ؟ . إلا أنه السيد الذي ينفق
على المنزل ؟ أيكون مجرد تفوقه المادي مبعث تلك السيادة ؟ . أم هو تركيبه
الجنساني ودوره الإيجابي في علاقته بالمرأة ؟ . ولكن ما أتفه تلك الفكرة
أيضاً .. ماذا إذن ؟ . وكيف ظلت المرأة عمر البشرية بعض متاع
الرجل وتابعاً له مع أنها مانحة الحياة وهي أم البشر جميعاً ؟ . كيف لم تشفع
لها الآلام الساحقة التي تحتاج جسدها وهي على وشك إهداء الإنسانية طفلاً
جديداً .. في أن يكون الرجل عطوفاً بها حنوناً ؟

ولكن مع ذلك فأول سؤال يلقيه الرجل .. ذكر أم أنثى ؟ .. لماذا ألوم

الرجل ؟ . ولماذا لا أسأل قصى كيف قبلت المرأة أن تكون بعض متاع الرجل ؟ ولماذا رضيت أن تكون تابعا له ؟

مرة أخرى لماذا لم تنبع من النساء عبقریات كما نبغ من الرجال ؟ . لماذا سرى قلة من النساء المتفوقات ؟ . ما السبب ؟ ما السبب .. ؟

نظرت إلى شريفة وهي ترضع طفلتها وقلت ها ..

— يجب أن تبدئي ، رجیما ، قاسياً .. لقد ازداد وزنك إلى الضعف ..

ابتسمت شريفة بحنان إلى طفلتها وقالت :

— كل شيء فداء (مها) ..

— وأضافت وهي تقبل اليد الصغيرة المتعلقة بثديها ..

— لقد أراد بهاء ألا أرضعها حتى أستعيد رشاقتي سريعاً .. ولكنني متمسكة

بإرضاعها . إنه شعور ممتع أن أحس أنها تنمو عن طريق ثديي المليء

باللبن .. قلت وقد انتقل إلى حنان الأمومة الموجود في كل أنثى ..

— هذا شعور بديع يا شريفة ولكن ألا يهلك على الإطلاق أن تضبني سنتين

كاملتين من شبابتك .. سنة في حملها وسنة أخرى في إرضاعها واستعادة

رشاقة جسدك ؟

أجابت شريفة بيقين ودون تردد :

— لقد خلقت لأكون أما .. وهذا يكفيني ..

لقد أجابت شريفة على سؤال الحائر .. إن المرأة تكثني بدورها كام ..

كأنحة حياة .. ولا يهمها أن تضيع سنوات عمرها في إنجاب الأطفال .. وأن

تضيع حياتها بلا عمل ..

إن لحظة رؤية مولود جديد يتضاءل أمامها أي عمل ..

ولكن أنا .. هل أكون مثل شريفة .. مجرد أم نجبل وتلد وتكثني بأن

نمنح الأجيال أطفالاً ؟ . لا مستحيل .. أنا أريد أن أعمل .. لا غنى للشخص
الذى يحترم نفسه عن العمل .. ليس عملاً روتينياً لا إبداع فيه .. وإنما عملاً
بناءً خلاقاً أحبه وأضيف به جديداً من نفس كل يوم .. لماذا تركت الرسم ؟ .
لأنه طريقى الصحيح . كيف تركته واخترت وظيفة روتينية ؟ . إن طريقى
الصحيح فى الرسم فى التعبير ، فى محاولة لإيصال ما أفكر فيه إلى الآخرين ..
من الغد سأقدم استقالتي .. وسأذهب بأوراقى إلى كلية الفنون الجميلة ..
سألتحق بها لأبدع فناً ..

كم أحببت شريفة .. فهنا فى بيتها وعن طريق مولودتها وجدت طريقى
بعد طول ضياع وحيرة .. واكتشفت أنى أختلف عن معظم النساء .. لست
مجرد أنوثة تبحث عن رجل وطفل وبيت تستظل تحته .. وإنما أنا إنسانة لى
فرديتى وكبرياتى .. ولاهنا لى فى هذه الدنيا إلا إذا حققت ما يبرر وجودى ..

كلمت أحمد وطلبت مقابله .. كنت أقاوم حبه فى قلبى لأنى كنت
أخاف أن أكون ملتصقة به التصاق السابق بأخى . ولكنى الآن لا أخاف
شيئاً .. لقد وجلت طريقى ..

إن داخل كل منا ضعفاً يلقي بنا فى الحب ليندوب كل منا فى الآخر ويفقد
فرديته .. وقد تخلصت أنا من ضعفى وبدأت أسترد نفسى .. وبنى أن يتخلص
أحمد من عدائه الطبقي لى .. فى طريقى إليه لم يعاودنى الشعور بالذنب ..
أنا لا أصنع خطأ .. إن من حقى أن يكون لى صديق مادمت أعرف حدود
حرمنى فأنا الآن كائن حر مستقل .. ولكن ترى هل يحترم أحمد المرأة
احتراماً حقيقياً ، وهل استطاع حقاً أن يتخلص من ريفيته ؟ . لم تعطنى
نصرفات أحمد طوال معرفتى به جواباً صريحاً على سؤالى ..

كان لقاء فائراً .. ولاحظ أحمد أن مشاعري قد تغيرت .. وسررت
سروراً خبيثاً لهذه الملاحظة ..

لاشك في أني تغيرت كثيراً .. فقد بدأت أسترد نفسي التي ضيعتها بين ذراعيه .
بدأت أشعر لأول مرة أننا شخصان اثنان .. جسدان وروحان .. ولنا
جسداً واحداً وروحاً واحدة ..

رجعت إلى الفيلا وفي قلبي حب لكل شيء .. للسماء الرحبة .. للأرض
الواسعة ، وللطرق العديدة التي فتحت أمام بصري .. تلاشي الضباب الذي
كان يحجب عن عيني الرؤية وشعرت أني أرى لآفاق بعيدة ..

كان التغيير الذي يحدث بداخلي أشبه بمجنين على وشك الميلاد ..
وكانت مشاعري مزيجاً من القلق والرغبة .. والفرحة بالحرية التي عادت إلى
في نزولي الدرجات وأنا خارجة لزيارة نادبة .. خرق أذني وأنا أعبر
البهو حديث تليفوني بين أبي وأحد أصدقائه ..

— نعم أوقفوا الجريدة .. واعتقلوا رئيس التحرير .. وكذلك المحررين السياسيين
معه .. هذا حسن .. يجب أن يذوقوا السجن ليتعلموا الأدب .. هؤلاء
قوم لا يتعلمون إلا بالضرب .. نعم يا أخي كل المحررين سمير عبدالوهاب
وأحمد إبراهيم ..

وقفت مذهولة أكذب أذني وأتهمها بالصمم .. بل لقد خيل إلى أني
أصبت بالصمم فعلاً .. وخرق أذني صفيح يشوش على بقية كلامه .. أخذت
إلى شفتيه وهما تنفرجان وتنطبقان دون أن أسمع كلماته أو أفهم ما يقول
بعد ذلك .. جريت أهبط إلى الحديقة وأخذت العربية إلى نادبة ..

صعدت إليها بعينين زائغتين وعقل مشوش .. صاحت عند رؤيتي ..

— ماذا بك يا نجلاء .. ماذا جرى ؟

أخذتني وأدخلتني إلى حجرتها الخاصة .. وهناك ارتحيت على القراش أبكى بحرقه ..

قالت نادية في هلع :

— ماذا جرى .. ماذا حدث ؟

صرخت فيها :

— نادية لقد اعتقل أحمد ..

— اعتقل كيف عرفت ..

— من أبى .. نادية ، سيضربونه يا نادية .. سيجلدونه .. لقد تعذب أحمد طوال حياته وليس به قوة على تحمل المزيد .. إنه مريض لن يحتمل .. أنا خائفة .. خائفة ..

— لا تركي نفسك لهذه الأوهام .. ولكن هل أنت متأكدة ؟

— كيف يلتبس على اسمه .. وهل أسمع من كل الأسماء سوى اسمه .. نعم هو أحمد إبراهيم المحرر السياسي ..

— غدا يخرج يا نجلاء لن يحجزوه سوى يومين أو على الأكثر ثلاثة أيام .. إنه لن يحتمل سجن يوم واحد ..

ظلت عند نادية وقتاً طويلاً أبكى .. وأخيراً استجمعت نفسي وتركتها إلى متيلى وهناك خيل إلى أنى أهذى وأن هذا الواقع الذى أعيشه غير حقيقى ولا يمكن أن يكون حقيقياً فكيف يمكن أن يكون أحمد سجيناً وأنا هنا جالسة فى حجرتى مثل فى أى يوم من أيامى العادية .. ماذا بيدي ؟ .. ماذا يمكن أن أصله من أجل أحمد ؟ لا شيء .. لا شيء سوى إحساس سلبى بالكراهية والخذل والثورة على نظام سياسى فاسد وملك ظالم ..

مرت ثلاثة أيام كاملة بلا نوم ولا أكل ولا حياة ..

فى اليوم الرابع وفى الرابعة سمعت الرنين بجوار فراشى فى الميعاد المعتاد
هل يمكن أن يكون أحمد ؟ . غير معقول .. ولكن رغم بأسى كان هناك
أمل ينمو فى قلبى .. مددت يدى إلى التليفون وقلت ..
- آلو ..

جاءنى صوت أحمد :

- نجلاء ..

لم أصدق أذنى .. غير معقول أن يكون صوته .. لماذا تدس على أذنى
الأصوات ؟ . جاءنى الصوت مرة أخرى :

نجلاء هل تسمعينى ؟

صرخت ..

- أحمد غير معقول .. قل إنك أحمد ..

- أنا أحمد يا نجلاء .. حبيبى أنا بخير ..

بخير .. يا لها من كلمة عذبة .. أحمد بخير .. حبيبى بخير وهو على الطرف
الآخر بكلمتى ..

- أوحشتنى يا نجلاء .. ولكنى لن أستطيع أن أراك .. لأنى مراقب ..

- هذا شيء لا يهمنى .. سأراك فى الخامسة فى الكازينو ..

- نجلاء .. أنت لا تفهمينى .. هل سمعت ما أقوله ؟ . أنا مراقب ..

- سمعت يا أحمد .. ولكنى سأراك فى موعدنا ..

وضعت الساعة .. وقمت أرتدى ثيابى .. إن حبيبى بخير .. أنا أعرف

لأول مرة معنى السعادة ..

قبل موعدى كنت هناك أمام الكازينو ، رأيت أحمد واقفاً أيضاً قبل

قبل الميعاد . خطوت إليه بسرعة .. أمسك يدى وقبلنى بعينه .. وسأل

وهو يضغط ضغطاً قوياً على يدي : .

— لماذا أتيت ؟

— لأنني أحبك ..

— هذا خطر عليك أرجعي ..

واحتضنت ذراعه بذراعي .. وفتحت صدرى للنسيم أستنشقه بلذة :

ومر شهر .. وعاد أحمد للكتابة من جديد .. قال بصوت ساخر ..
 — لقد غفروا لي دفاعا عن الحق وسمحوا لي بالكتابة ..
 وكان بصوته مرارة .. كان يبدو أن السجن قد زاده صلابة وإصراراً ..
 وأحببت فيه هذا التحدي ..

- دق جرس التليفون وتسلل إلى أذنى صوت نسائي لا أعرفه ..
- آلو .. نجلاء هانم ..
- نعم .. أنا نجلاء ..
- لقد كلفنى أحمد أن أتصل بك لأخبرك أنه فى المستشفى ..
- فى المستشفى .. لماذا ؟
- هو بنحبر .. ولكنه فى حاجة لفحص كامل ..
- قلت بسرعة :
- سأكون عنده بعد دقائق ..

وضعت سماعة التليفون .. وجريت إلى الدولاب فشددت حقيية بد ..

غيرت شبشبى بحذاء وجريت أهبط الدرجات .. ماذا بأحمد ؟ .

أخذت تاكسى وأسرعت إلى المستشفى .. ووجدت أحمد راقداً

حجرة بيضاء بلا لون ممدوداً فى فراش صغير وسط البياض .. صاحب

حزين .. فى عينيه استسلام وخضوع وقد انطفأ بريق التحدى من نظراته ..

كرهت اللالون لأنه ترادف بسرعة فى ذهنى مع معنى المرض والاستسلام ..

أنا لا أحب أحمد خاضعاً .. أنا أحبه قائداً شامر السلاح فى وجه كل عدوان ..

خطوت إليه ومددت له يدى .. ولم أستطع الكلام .. توقف لسانى ..

ونكلمت عيناى بدموع الحب .. فلم أستطع من الخوف عليه سوى أن
أبكي ..

قبلتني عيناه .. وعانقت رموشه خدائى وطوقت أنفاسه وجهى فبعثت
الدفء إلى قلبي .. ولكنه تكلم بياس عجيب ..
- نجلاء يجب أن نواجه الحقيقة .. أنا مريض .. ومرضى لا شفاء منه ..
- كيف ؟

- هناك عملية جراحية ولكنى لن أترك أحداً يشق جسدى وبعث به ..
أكمل بياس أكثر :

هناك قدر أقوى من إرادتنا ومن حبنا للحياة ..
- مستحيل .. مستحيل ..

- نعم .. يا نجلاء .. إنها الحقيقة .. سأظل مريضاً يسحب منى المرض صحتى
يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر حتى أصبح هيكلاً لا يتحمل لفتح الهواء ثم
أموت .. وأفارق معشوقى الخالدة .. الحياة ..

تخسرج صوته فأدار وجهه ودمعت عيناه .. احتويت وجهه بين كنى
وقلبي يتمزق حزناً ..

أجهشت بالبكاء أنا الأخرى واستسلم أحمد لفمائى ودس رأسه فى
صدرى كأنه طفل صغير يبحث عن أمان ..

سمعت من صدرى همساته .. كان قلبه يوشوش لى .. حبيبى .. امنحني
حانك .. ولكن ما أقل ما أعطيت وأكثر ما أخذت من ذلك الفيض الغنى
من حنانه هو .. كنا فى قمة عالية من التعاطف حينما سمعته يتكلم بمثل
ما فكرت فيه عن الخوف .

- هل حدثتكَ عن الخوف يا نجلاء ؟ . لقد صاحبنى منذ طفولتى .. وبعث

الشك والتوجس والريبة إلى قاي .. وأحال كل الأشياء وكل الناس حولي
إلى غيلان، دائماً كنت أشعر أنى بلا مأوى لأن بيتنا الطينى كثيراً ما تهدم من
أثر المطر .. كنت أخاف من الجنيات والعفاريت .. وكنت أهرول
فرعاً حينما أناخرق الجحوق إلى ما بعد الغروب .. وعندما دخلت المدرسة
كنت أخاف عصا المدرس .. ثم أصبح خوفي الأكبر أن أحرم من التعليم ..
وحينما اكتشفت المرض الحبيث الذى يكمن فى جسدى سيطر على خوف
الموت .. والقناء ..

- ولكن يا حبيبي لماذا لا تجرى العملية .. ؟
 - الطب .. طفل صغير مازال يثق أبواب المجهول .. هناك أمراض كثيرة
لم يجد لها الطب حلاً ..
 - لماذا تتكلم بهذه النغمة اليايسة .. أنت تمزق قلبي .. ليتنى كنت المريضة
بذلك ..
 - لا تقولى هذا .. ليس من حقلك أن تقولى هذا ..
 - ولكن لماذا تمرض أنت بالذات .. أنت الذى تعطى الدنيا فنا وتقود عقول
الناس إلى التفكير ؟ .
 - أنت أعطيتنى ما هو أجمل من الفن .. لقد أضأت لى الطريق لأتعرف
على نفسى .. كما أضأت لك الطريق لتعرفى نفسك ..
 - أنت أيضاً .. كلانا كان نقطة بد بالنسبة للآخر .. لقد بدأنا نعيش ونتلوق
الحياة منذ عرف كل منا الآخر .. يا حبيبي .. أنت حيأتى ..
 - راح أحمد يربت على شعري ويطمئننى .. ويسرى عنى .. هو يفعل
ما يجب أن أفعله أنا ..
- قلت :

- لينى بمثل قوتك يا أحمد ..
- روحى قوية .. ولكن مادنى ضعيفة .. أنت تستطيعين أن تكونى قوية أيضاً ..
- أنت إرادتى .. إنى أدين لك بكل شىء ..
- لا دين لأحد على أحد .. إنه ديننا نحن الاثناء على الحب ..
- نظر إلى ساعته وقال ..
- يجب أن تذهبي الآن حتى لا تتأخرى ..
- لا أريد أن أذهب ، إن مكانى هنا بجانبك ..
- بل متلحين الآن ..
- سأحضر فى الصباح إذن ..
- وعملك ؟
- هل نسيت ؟ .. لقد تركته ..
- وماذا قال أبواك ؟
- فضلاً دراستى على العمل ..
- انحنيت فقبلت وجنته .. واحتوى هو وجهى لحظة ونظر فى عيني وقبلهما .
- تركته ومضيت إلى بيتى وأنا حزينة غصبي من الحياة .. لماذا نتعذب فى هذه
- الدنيا .. ولماذا نولد لنمرض ونمرض ونموت ؟ . أمى نكته سخيفة .. أم أن
- هناك حكمة وراء كل هذا ؟ . وما هى تلك الحكمة ؟ .
- لم أستطع النوم .. جلست أفكر هل يمكن أن يموت أحمد حقاً ؟ وهل
- يمكن أن يرحل هو الآخر ويتركنى ؟ مستحيل .. مستحيل ..
- للمرة المليون لماذا نحيا .. لماذا نتعذب .. ولماذا نموت ؟
- ظلمت يقضى طوال الليل .. وفى لحظة إغفاء عند الفجر هاجمتنى أحلام
- مزعجة .. أنا فى مكان كل ما فيه أبيض .. ثم ينسلل اللون الأسود فيطمس

اللون الأبيض .. ويبقى لون مختلط من نور وظلمة .. وأنا ضائعة بينهما لا أصل
إلى نهار ولا أغرق في ليل .. ولكنني أقاوم وأجرى إلى شبه باب في المكان
أريد الهروب من هذا الخائط .. انتصب أمامي فجأة كائن عملاق لا ينظر
إلى ولكن يسد الطريق إلى الباب .. أجرى إلى باب آخر فيلاحقني المارد ..
استجمعت شجاعتي ووقفت أصرخ فيه .. استيقظت من النوم وأنا أصرخ ..
ضايقتني استيقاظي دون أن أصل إلى نتيجة ..

في العاشرة كنت في حجرة أحمد في المستشفى .. تهلل وجهه بالفرحة
لرؤيتي ..

قلت بابتسام :

— هل زارك الطبيب يا أحمد ؟ .

— نعم ..

— وماذا قال ؟

— قال .. إني لو سافرت إلى سويسرا لكان الأمل في شفائي كبيراً ..

— إذن متسافر يا أحمد .. وترجع بصحة جيدة ..

— نجلاء لقد تعودت طوال حياتي ألا أضحكك على نفسي أبداً .. ودائماً

كان هناك إحساس داخلي يتحدث إلى ويهمس إذا كنت سأنتصر .. وهو

صامت الآن وصحته يخيفني ..

— ولكن ستجري العملية يا أحمد ، أليس كذلك ؟

— لا يا نجلاء لا فائدة ..

— لا تقل لا فائدة يجب أن تجربها ..

— بل إني سأموت .. أجريتها أم لم أجرها ..

— هذا هراء .. لست أنت الذي تقول هذا الكلام .. متسافر وستجري

العملية . لماذا أنت صامت يا أحمد ؟ . من أجل حبي لك .. يجب أن تعالج نفسك ..

أمسك بوجهي في حنان وقال بوجد ..

— من أجل حبك سأجرى العملية .. أنا أريدك .. أريدك ..

— حبيبي سأنتظرك .. وستذهب وتعود بالسلامة ..

— أنت تعطيني أملاً مجنوناً ..

— بل أملاً عاقلاً .. وسأنتظرك يوم حضورك في المطار ..

— أهو وعد ؟

— إنه وعد بقاء وبقيلة وبجياة ..

— لقد أصبحت تجيدين التشجيع ..

سياسفر أحمد وأنا أخاف أن تنتكس روحى بعد سفره فلا يعود لحياتى
قيمة بدونه . فهو الذى يعطيها المعنى .. ولكن لا مبرر لهذا الخوف .. لقد
انتصرت على نفسى .. أنا قوية الآن .. ألم أقل إنى أستطيع أن أسيطر على
كل شىء حتى على حبنى لأحمد ..

وسافر أحمد .. وبعد عنى .. أياماً وشهوراً طويلة عشتها دون أن يبدو
لطولها نهاية ..

كان كل يوم يمر بدونه سباقاً مريراً أسابق فيه نفسى .. أسابق أشواقى
دقيقة بدقيقة حتى ألث آخر الليل وأقع من التعب ..

وأيقنت أنه لا مفر من أن ترتبط حياتنا .. وفكرت أن أعرض عليه
الزواج عند عودته لماذا لا يكون لنا الحق فى أن نفصح عن رغبتنا بالزواج
لمن نحب كما يفعل الرجل ؟ أليست هذه هى المساواة التى يقولون عنها ؟ .

ولا أدري كم من العذابات والأشواق مزقتنى حتى جاءت تلك اللحظة
الوردية التى رفعت فيها نادية التليفون لتهمس إلى ..

— نجلاء .. عندى لك أعظم خبر .. سيصل أحمد اليوم فى الرابعة تماماً ..
فى مطار القاهرة ..

فى الثالثة تماماً كنت أنا ونادية فى المطار ننتظر حضور الطائرة القادمة
من سويسرا ..

توقف الزمن عن دورته المعتادة ودخل فى توقيت الانتظار البطيء ..
عينائى معلقتان بساعة الحائط أمامى .. عقاربها بطيئة .. تكاد لا تتحرك ..

مرت خمس دقائق .. ونادية تتكلم عن الجو .. عما اشترته من أقمشة ..
عن ضيق حذاءها الحديد .. عن لونه الذى تحبه .. وعن البايونة المثبتة فى
طرفه ولونها المختلف عن لون الحذاء .. وعن كعبه الرفيع المديب .. وعن
جلده الناعم . مرت عشر دقائق .. دخلت فى حديث مع نادية دون أن
أفهم ما أقول أو ما تقول هى فقط يمضى الوقت .. ومرت خمس دقائق
أخرى .. جمعنا لحظات صمت .. ومرت خمس دقائق أخرى .. عادت
نادية للكلام من جديد .. ولم أسمع ما تقول تلك المرة عينائى ما زالتا معلقتين
على ذراعى الزمن الكسول .. الوقت يزحف .. يتلصق .. ويغفو .. ينام ..
مرت خمس دقائق أخرى .. خمس وعشرون دقيقة مرت .. لماذا لا تمر
خمس الدقائق الباقية ؟ . لن أنظر إلى الساعة .. لتسكع الثوانى كما تريد ..
ولكننى لن أنظر إليها ..

طلت أشغل عقل بأمور كثيرة .. فكرت فى أحمد .. فكرت فى نفسى

فكرت في ميعاد تقديم أوراقى إلى الكلية .. فكرت في قراءة كتاب .. ثم ارتفعت عيناي رغماً عني إلى الساعة .. كل تفكيرى هذا لم يستغرق سوى دقيقة .. لن أنظر إلى الساعة مرة أخرى ولن أسمع لعيني أن تتوسلا بذل إلى الزمن ..

فمت وغيبت مكاني .. ظلت الساعة تعذبني حتى بعد أن أعطيتها ظهورى .. سمعت أزيز طائرة يقترب حتى ملأ صوته المطار كله وهز زجاج الواجه .. جريت أنظر من النافذة إلى طائرة أحمد .. جاءت نادية خلني تقول إن الساعة مازالت الثالثة والنصف .. ولكنى لم أسمع كلامها .. أنا أشعر أنها طائرة أحمد .. أعلنت المضيفة الأرضية أن الطائرة حضرت قبل موعدها بنصف ساعة .. أكملت المضيفة .. قامت الطائرة من سويسرا في الساعة كذا .. ولم أسمع كلمة .. جريت أهبط الدرجات إلى أرض المطار ووفعت أحرق في الطائرة وهي تهبط ثم وهي تلف أمامي .. وهي تتوقف .. وبنح بابها ورحت أحرق في المهابطين .. وقلبي يخفق في صدرى ويعلو صوته على أزيز محرك الطائرة .. ونزلت سيدتان في المقدمة وفي أثرهما رجلان صبور وآخر شاب .. أين أحمد ؟ .. هبط رجل بمعطف قائم .. أين أحمد ؟ راحت عيناي تنظران إلى ذلك الرجل من جديد .. يا إلهي إنه أحمد .. أحمد بحمه وعظمه يهبط الدرجات وقد ازداد نحولا وشحوباً وعيناه تبحثان عني .. رفعت يدي أشير له .. رآني .. تهلل وجهه بفرحة غامرة ورفع يده بشير إلى .. أسرع إلى حتى لمس أصابعي من خلال السلك الذى يفصل بيننا .. هاهو أحمد أمامي حقاً ويده تلامس يدي .. الحمد لله ..

مضى هو ليخلص حقائبه من الحمر كوارتميت أنا بين يدي نادية .. أبكى : أبكى من الفرحه ..

انتهى أحمد من إجراءات الجمرك وأخذ بيدي ويد نادية وخطونا
إلى عربة أجرة .. ومضت بنا العربة تتخترق الصحراء .. لم أعلم من قبل
أن الصحراء ممكن أن تكون بهذا الجمال .. إنها ليست صحراء .. إنها جنة
مزروعة بالأحلام ..

التفت بأحمد صباح اليوم الثانى .. نظرت فى عينيه .. كأن بهما شيئاً قد
تغير .. شعاع النور الهزيل الذى كان يرسل ضوءه كلما تكلم .. انطفأ ..
قال أحمد بثيرة حزينة :

— أوحشتنى يا نجلاء ..

لماذا تبيرة الحزن العميقة تلك ؟

— أتعلمين أنى لم أجر العملية ؟

— حقاً .. لماذا ؟

— لقد أعطونى نظاماً علاجياً وقالوا إنى لن أحتاج إلى إجرائها .. وأن صحى
ليست بالسوء الذى أتصوره .. ولكن يجب أن أعرض نفسى عليهم مرة
أخرى بعد العلاج ..

— هذا خبر عظيم يا أحمد .. لقد انتهى الكابوس إذن ..

— نعم ..

— أنا سعيدة بل أكثر من سعيدة .. أحمد لقد فكرت كثيراً طوال مدة سفرك
وأحسست أنى لن أستطيع العيش بدونك .. أحمد لماذا لا نرتبط ؟

- نجلاء .. أينها العزيرة لن نستطيع ..

- ماذا ؟

- لأسباب كثيرة ..

- قل شيئاً واحداً ..

- أنا لست جديراً بك .

لا تقل هذا .. وقل السبب الحقيقي .. وهو أنك لم تحبني قط ..

- هذا ليس صحيحاً ..

صمت .. ولم يتكلم .. وكان صوته مؤمناً جارحاً ثقيلاً ..

- نجلاء لن تكون زيجة مناسبة لكأينا ..

انهدرت الدموع من عيني دون إرادتي .. وربت هو عني يدي ..

- كيف تقول هذا الكلام بعد أن امترجنا في كل شيء وأصبحنا شخصاً واحداً ؟ .

- ليس هناك امتزاج كما تتخيلين ، مهما قلنا سنظل اثنين .. مهما فعلنا سنظل اثنين .

نساقت سعادتي مع كلمات أحمد مهشمة إلى الأرض .. أنا التي حلمت أن أعيش معه أيامي كلها . كل أيام شبابي وأبد حياتي .. ماذا جرى لأحمد؟ إنه أحمد آخر .. لا أعرفه ، أين حنانه ؟ .

عاد يتكلم .. لقد عشنا لحظات حلوة ونسجنا معاً أحلاماً جميلة ..

إن كل كلمة يقولها تحطمني أكثر .. إنه يشعرني لأنني كنت أنسج معه نسجاً عنكبوتياً للذكرى .. وأن الأيام التي عشتها سيفطئها تراب الزمن وستمحوها يد النسيان . لقد جعلني أشعر من كلامه أننا غرباء وأنا كنا نلتقي وبترق عبر أسوار وأبواب مغلقة ولم نصل حتى إلى أن تتلامس أيدينا .

بدأ أحمد يسترد صحته بمفعول الدواء الحديد ورأيت الحياة تعود إلى
أوصاله الذابلة .. ورأيت يورق أمامي ويتورد بالصحة والعافية .. أما عيناه
فكانتا تزدادان ظلاماً وحزناً .. كان يزداد غموضاً يوماً بعد يوم .. وينسحب
من حياتي بالتدريج .. ويبعد ويمعن في البعد .. وكان يجب أن أفعل شيئاً
حتى لا أموت ففرضت على نفسي البعاد ..
قررت السفر عند جدى في العزبة ..

وهناك في الريف الذى أحبه وسط الحقول الخضرة اللانهائية .. وسط
الطبيعة المصرية الصريحة البسيطة .. واجهت ألماً عاتياً جباراً .. واجهت
ألم القراق .. ظلت ساعات أمشي في الحقول وأبكي .. أتذكر حنانه
وأبكي .. أتذكر اهتمامه وأبكي .. وأتذكر قسوته وأبكي .. كنت في حاجة
للحركة حتى لا أتجمد ، حتى لا أموت ..

ركبت الحصان وألتهته بالعصا .. فجرى بي وانحسرت الأرض من حولي
بسرعة وصفر الهواء في أذني وشد شعري إلى الوراء .. أصبحت أنا والحصان
كتلة واحدة تتحرك المجهول .. مجهولاً من الخطوط والمساحات .. والمواطف ..
أنا قوية ولين أضعف لقسوة أحمد .. سأهجره أنا .. تساقطت دموع جديدة
عند فكرة الهجران .. ولكننا سنفترق .. صرخت .. طر يا نمرود .. انطلق ..

لا تسهل سنفترق .. صرخت بالكلمة .. لأقنع بها نفسي وتساقطت أصداؤها
على الأرض ..

وفي المساء حملتني العربة عبر طرقات زراعية عذبة متربة وتحولت
أنا وعربة والليل إلى قطعة سواد .. وتلونت السماء .. والأرض .. وقاي ..
بالسواد .. وتحولت إلى جثة بلا أمل .. بلا نبض .. بلا رغبة في شيء ..

شقشقت عصافير عديدة في الفجر عند نافذتي فأيقظتني من نومي ..
صحا جسدي ، عيناى .. أذناى .. أطرافى كلها .. كانت تتحرك ، تسمع
وترى ، ولكن قلبي كان يعاني سكرات الموت ..

قضيت الصباح في الفراش .. وجاء جدى إلى حجرتي ملهوقاً يتساءل
عما بي وكاد يرسل في طلب طبيب كي يرانى .. ولكنى أكدت له أنى بخير ،
فقط متعبة ، مرهقة من العمل والسفر .. ثار بشدة على والدى لأنه سمع لى
بالعمل الذى أدى إلى إرهاق كل هذا الإرهاق .. ثم جلس غاضباً يجوارى
على الفراش .. وبدأ حبيباً إلى قلبي وكدت أربت على وجنتيه ملاطفة فقد
بدا لى طفلاً غاضباً طريفاً فى غضبه ..

خرجت بعد الظهر من الفيلا .. نزلت الدرجات إلى الحديقة الواسعة ..
ظللت أمشى وأمشى ووجدت نفسى من جديد أبكى .. وأبكى .. وأحسست
بالدموع وقد غسّلت أشجائى وكأنى حقل حنطة بعد يوم مطير .. وقد أصبحت
سنايله نظيفة لامعة مندادة . وداهمنى النوم فجأة . ثقل رأى وشد جسدى
إلى الأرض فتداعبت تحت شجرة عجوز وسقطت فى غيبوبة غير كاملة ..
نائمة يقظة أحلم وأشعر بشكل غامض بما يعبرى حولى ..

أحمد يبدو فى طريق غريب متلاشياً فى البعد .. ولا سبيل إلى الوصول

إليه . تباح كلاب يصل إلى أذنى .. والشمس تخطو آخر خطواتها نحو المغيب ..
وبضعة عصافير تترقز في إيابها إلى أعشاشها .. والمزرعة تلفها نسمة باردة
ترعشني والسحب تتلون بألوان ثقيلة .. رمادية .. بنفسجية وسوداء .. وتبدو
مطرزة بماسات النجوم وأنا غريبة في بحار أحزاني .. شبه نائمة .. لا أريد
أن أصحو وليست عندى المقدرة على انتزاع نفسى من تلك البحار اللزجة ..
من هذا الموت المؤقت .. مسحت على وجهى وأنا أنساءل أين أنا .. الدنيا
ظلام .. قمت واقفة وأسندت جسدى إلى جزع الشجرة وتذكرت تدريجياً
كل شيء .. وكانت أمطار الدموع التى انهمرت من عيني قد أنصجت حزنى
فأصبح الماء ثقيلًا لاصقاً بى وكأنه قطعة من جسدى .. وعاد فكرى ينسج
عنكبوتاً من الأفكار الغريبة ..

فكرت وأنا أجتاز سور الحديقة في اليوم التالى إلى الحقول .. أن الحياة
هنا تبدو وكأنها بلا قضبان وكأنها بلا زمن .. بلا عيون .. بلا ألسنة ..
بلا فضول .. هنا بساطة شديدة وسلام .. وتمنيت لو أعيش هنا .. حيث
الهدوء .. والصمت وحيث لا شيء يسمع إلا صوت القلب ..

لقد مضت سنوات عديدة منذ كنت هنا آخر مرة .. ومع ذلك يبدو أن
كل شيء مازال على حاله البيوت مازالت طينية كما هى والوجوه صفراء ..
والأطفال جالسون على الأرض بجوار الجدران كأنهم نفس الأطفال الذين
رأيتهم منذ عشرين سنة .. كأنهم لم يتحركوا من أماكنهم .. ولم يأكلوا من
يومها .. ولم يغيروا ثيابهم الباهتة .

نبات الطفولة مهمل بجوار الحائط .. الذباب يأكل من وجهه والرمد
يسمل عيونه البريئة ويطغى جنوة الذكاء من أحداقه إلى الأبد .. لا جديد ..
الحياة لم تتغير ولكن الذى تغير هو أنا .. أنا التى تغيرت .. كلمات أحمد هى

الى غيرتى .. هي التي جعلتني أرى هذا القبح الذي كنت أمر به دون أن أراه .. لأنى لم أكن أريد أن أراه ..

هرول صالح الجنائى ناحيتى .. وانحنى على يدى يلثمها .. فأمرعت بسحبها ورأيت يلفت من خلنى ويسب الأطفال ويأمرهم بالابتعاد .. ورأيت مجموعة من الأطفال تتفاخر ورأى .. وفهمت أنهم كانوا يتفاخرون طوال ورأى ليتفجروا على ويقلدوا مشيتى ترى كم من الحقد أثرت فى تلك الصدور الصغيرة بمشيتى هذه ؟ ليتنى لم أمش على الإطلاق ..

كيف تبادر إلى ذهنى أن الحياة هنا بلا قضبان .. ؟ الحياة هنا منى .. بل سجن كبير .. وكل الذين يعيشون هنا سجناء الفقر مدى الحياة ..

أصر عم صالح على أن أشرف بيته بزيارتي لأتناول كوب شاي .. قبلت دعوته لأنى شعرت أن ذلك سيسعد ..

أمام بيته الطينى سبقنى إلى الدخول ليوسع لى الطريق وراح يرحب بى بكلمات طنانة رنانة ..

هرول صغيران من مكان ما فى القاعة .. واختبأ خلف الزير وراحا ينظران ألى بفضول وجاءت أمهما ترحب بى مخفية نصف وجهها خلف طرحتها السوداء فى حرص خفية أن تفاجأ بوجود رجل معى .. واقتربت منى وربت على كفى تعيذنى بالله وبالرسول وبأم هاشم من العين .. وشر العين .. وشدتنى إلى أحضانها بود ومصمتت شفيتها بجوار خدى فى قبلات ساذجة .. وشممت وأنا فى أحضانها مزيجاً من روائح دقيق وحلبة ونعناع وتراب ..

طلب منها زوجها أن تصنع لنا الشاي .. تباطأت وأرسلت لعيني زوجها نظرة ناعمة .. نظرة امرأة تعلم مقدار مكانتها فى قلب زوجها .. وأدهشنى أن تنمو نظرات الغزل وسط كل هذا الفقر ..

انسحبت المرأة إلى ركن القاعة لتعد الشاي وراحت تستعيد ذكريات طفولتي في هذا الريف الذي يحوطنا ..

ورجعت مع صوتها المملوط .. إلى ذكريات طفولتي .. وفجأة أحسست ثوبي يشد ، والتفت .. ورأيت عيني براقنتين ويد صغيرة سمراء تداعبني ثم تختفي بسرعة خلف الزير ورأى ..

أدهشني هذا الصغير الطريف .. الذي لم يرهبه شكلي القاهرى ولا آيات التبجيل التي يضيفها أبوه على .. لقد انجذب إلى بإحساس فطرى بالحلب .. وهو واثق أنه سيجد صدى لشعوره ..

انتهت المرأة من صنع الشاي .. وقدمته لنا وهي تردد أنه ليس « قد المقام » وتسلل الصغير الذي كان يداعبني خطوة .. ثم خطوة .. حتى أصبح يجوارى تماماً فداعبت خده وصوبت نظرة إلى عينيه الماكرتين .. فابتسم .. بينما شغط فيه أبوه : اختش يا واد .. ولكن الصغير ظل مستكيناً بجانبى .. وأحسست بحب جارف يملؤني نحوه .. وبأمومة مفاجئة تبتاح قاي .. ترى ما هو مستقبل هذا الصغير ؟

تلفت حولي إلى مصيره المكتوب على الجدران السوداء .. على الأرض التي ينام عليها .. على وجه أمه التعمس .. وجيوب والده الخاوية .. ماذا أستطيع أن أصنعه من جل هذا الصغير ؟ ماذا أستطيع ؟

أستطيع أن أنفق عليه وأعلمه .. ولكن ماذا بشأن أخيه .. ؟ وماذا بشأن باقي أقرانه ؟ . وإذا أنشأت مدرسة .. ماذا يكون شأن القرى الأخرى ؟ وماذا عن الفقر والتعاسة في العالم أجمع ؟

كنت أسمع كلمات أحمد تتجسد لي في كل خطوة .. حقيقة لا سبيل إلى دفعها . كان معي .. كان أمامي .. كان حولي .. في ذلك الحزن الكالغ الترابي ..

ولكنه تغير .. لم يعد يحبني وأنا لا ألومه .. أنا أحترم حرية عواطفه حتى
لو كنت ضحيتها .. إن العواطف هي الشيء الوحيد الذي لا يمكن اصطناعه ..
إنها نسيج شفاف ينسجه قلب طفل أرعن .. ذى أهواء فكيف ألوم طفلا على
طفولته .. ولكنى أتألم برغم ذلك .. بل أموت ..

كل هذا المنطق لا يقنعنى .. لا يقنع قلبى ..
ولا راحة لى إذا استطعت أن أبتر هذا القلب .. وأعيش بعقلى وحده ..
بلا حب ..

كم من الأيام .. بل كم من السنين .. بل كم من الأجيال أنا فى حاجة
إليها لأقوم بتلك الجراحة ..

رجعت أخيراً إلى القاهرة لأواجه حقيقتي ..

وقررت ألا أنصل بأحمد .. يجب أن أنسحب من حياته مثلما انسحب
هو من حياتي .. ولكن ما حيلتي .. في حجرتي التي طالما شهدت لهفتي ،
واضطرابي وأنا في طريقى إليه .. ومرآتي التي رأت النجوم تسطع فجأة في
ليل عيوني لأنى سأراه ..

ما أفسى كل ذلك .. ولكن برغم كل شيء هذا الحب انتهى .. ولبت
قلبي في صدرى ولأمت أنا أيضاً .. قبل أن أجرى خلفه في مهانة لأتسول
حنانه وعاطفته ..

وجاءت نادبة لزيارتي ..

— حمد الله على السلامة يا نجلاء .. كيف تسافرين فجأة دون أن تقول لي
أو تقول لي لأحمد ؟

— أحمد .. ولماذا أقول له ؟

— لماذا تقولين له .. أليس أحمد صديقك .. بل حبيبك .. ؟

— كان ..

— ماذا تقولين .. ؟

— أقول الحقيقة ..

— ماذا جرى .. ؟

- لا شيء ..
- كيف .. لا شيء ..
- أحمد لم يعد يحبني .. وأنا أيضاً بدأت أنسحب من حياته .. هذا كل ما في الأمر كل ما في الأمر ..
- وقمت من مكاني إلى النافذة وأعطيت ظهري لنادية حتى لا ترى وجهي
الذي أصبح بالتأكيد رهيباً .. وأردفت حتى أتجنب النظر إلى وجهها ..
- كأي قصة حب عادية .. تنتهي قصتي ..
- لماذا تشوهين حبك هكذا .. ؟
- أنا لم أشوّه ..
- بل تشوهينه عندما تقولين عنه إنه قصة حب عادية ..
- ولكنها كذلك ..
- لا .. إن قصص حبنا تظل أبداً قصصاً غير عادية .. حتى لو كانت في الواقع عادية للغاية .. وعندما أسمعك أنت بالذات تقولين ذلك فأنا لا أصدق ... لا أصدق .
- أحسست فجأة بنادية ورائي .. فمسحت دموعي بسرعة وسمعتها تقول ..
- ماذا قررت .. ؟
- قررت ألا أراه ..
- أنت تهربين ..
- أهرب من ماذا ؟
- تهربين من نفسك ..
- بالعكس .. أنا أواجه نفسي .. بل إنها لأكثر فترات حياتي قوة .. لأنني لا أجد مفرّاً من مواجهة نفسي بلا مواراة ..

— لماذا تهربين منه وهو يحبك وقد اتصل بي تليفونياً أكثر من مرة مبدئياً
عجبه من رحيلك المفاجيء .. وصمتك ..

— لو بقيت لانتحرت .. كنت في حاجة لبعده .. كنت في حاجة لأغرق
نفسى فى أى شىء آخر غير حبنى .. وقد أغرقت نفسى فى مآس أكثر
جدية من قصة حبنى .. فتضاءلت بجوارها مأساتى .. بل حزنى .. فليس
فى قصتى أى مأساة ..

— لماذا تفعلين هذا بنفسك .. ؟

— أنا لم أفعل شيئاً .. لقد بدأ هو كل هذا .. فلماذا كان يجب أن يموت هذا
الحب فليمت ..

ولم أحمل نأجهشت بالبكاء .. وأخذتنى نادبة فى أحضانها وراحت تربت
على رأسى فى حنان ..

— لا تبكى ، لا تبكى يا نجلاء ..

وعندما خرجت نادبة بعد وقت طويل ظللت أحملق فى المرأة وأغوص
فيها .. فهذا الشكل يكون أنا أمام الناس ..

- ٣٨ -

رمى عبده السفرجى بسماعة التليفون وراح يكلم نفسه ..

- من هذا السخيف الذى يدق التليفون الساعة أربعة كل يوم .. ولا يرد ..

لماذا لا ينام كخلق الله فى الظهر قليلا ؟

إنه لا يبيس من طلبى .. فم كان انسحابه إذن ؟ وماذا يريد منى ؟

ومضت أيام أخرى ..

جلست فى المساء يجوار الراديو أسمع بعض الأغاني .. ورحت أثبت

الفرز الأخيرة فى مفروش كافتاه .. رن جرس التليفون بجوارى .. ورفعت

السماعة .. ترى من المتكلم ؟ ربما تكون شريفة ..

- آلو .. ؟

- نجلاء ..

- نعم ..

إنه أحمد .. كيف وقعت فى هذا الشرك .. لماذا يتصل بى فى المساء ..

- أريد أن أراك ..

- لماذا ؟

- لماذا ؟ أنا أحب أن أراك دائماً .. لماذا لم تخبرينى بعزمك على السفر ؟

- لم يكن بعزمى السفر.

— نجلاء .. لن نتناقش في التليفون .. يجب أن أراك .. نجلاء أرجوك ..

—

— لا تصمتي .. سأنتظرك في الكازينو .. غداً في موعدنا .. إلى اللقاء ..
وأقل الخط قبل أن أجيب بلا أو نعم .. وتركني في حيرة .. هل
سأذهب .. ؟ لا ليس عندي ما يقال .. وليس في قلبي عواطف الحب القديمة ..
كل شيء يبدو كأنه مضي منذ زمن طويل .. كأنها حكاية شخص آخر ..
إذا كان الأمر كذلك فلماذا لا أواجهه .. لماذا أهرب منه كما تقول نادية ؟
أنا لا أخافه ولن أضطرب في حضوره كما كنت أضطرب .

وفي الموعد كنت هناك ، لم تكن بقلبي فرحة .. كان به فتور .. ولكن كان
بعيني أحمد لطيفة إلى لقائي وشوق ..

— نجلاء لقد أوحشتني ..

ابتسمت وأكمل هو ..

— لماذا لم تخبريني بعزمك على السفر .. لماذا تركتني حائراً هكذا .. ؟
— ولماذا تختار ؟ أنا لم أغب كثيراً .. وأحياناً كانت تمر أيام دون أن يرى
أحدنا الآخر .. ما الغريب في هذا ؟
قال في حيرة :

— نجلاء لقد كنت تخبريني بكل شيء .. حتى بأحلامك .. وبالأفكار
التي تدور في رأسك .. ماذا جرى ؟

ثم قال بشيء من المرح :

— اعترفي أنك أخطأت .. هيا اعتفري ..

— أنا لم أخطيء ..

— إذن أنا المخطيء وأعتذر ..

- قلت أغبطه ..
- وأنا قبلت اعتذارك ..
- قال بدهشة ..
- عن ماذا ؟
- عن طلبك اعتذاراً ..
- هكذا ؟
- نعم ..
- ضحك وقال ..
- أنت لست نجلاء اليوم .. لتكلم في شيء آخر . أتعلمين أنى أكتب كتاباً جديداً ؟
- حقاً .. ؟
- لماذا لا يناقش موضوع علاقتنا بصراحة .. لماذا يهرب من المواجهة ؟
- أردف ..
- عندي كلام جديد أريد أن أقوله .. أفكار جديدة غيرت وجهة نظري ومعتقداتي القديمة ..
- سكت لحظة ثم أضاف ..
- سأكتب إهداء مطبوعاً لك على الكتاب .. إننى أكتبه وأنت ورائى فى كل كلمة .. لماذا يضعف قلبى الآن .. وما تلك النعمة المفعمة بالمحبة فى فبرات أحمد القاسية ؟ . لماذا هو عاطفى اليوم ؟ سمعته يعاود الكلام ..
- نانا ماذا بك .. لماذا تتعدين ؟
- إنه لأول مرة يدلانى دون أن يشعر .. ماذا جرى لأحمد ؟
- أنا لا أبعد .. أنا معك ..

— إنا قريبان جداً وبعيدان جداً .. أين تخلفين بخيالك ؟. أنت لا تسمعين كلامي ..

لماذا يقترب أحمد مني عندما أجد القوة على الابتعاد عنه .. لماذا يتمسك بي عندما أصبحت أستطيع الإفلات من قيوده .. ماذا يريد مني ؟ . أنا لا أستطيع الاستمرار في حب بلا أمل .. بلا هدف .. إلى الأبد .. إن الأيام الأخيرة طحتني .. سحقتني ، أطاحت بعقلي .. إن علاقتي قلقة على النوم .. وأنا لا أستطيع العيش هكذا بين اليأس والرجاء .. بين الحياة والموت .. ولكن هذا القلب الطفل يفرح لحلى كلامه وأحمد يتكلم بعذوبة اليوم .. ولا يستطيع الطفل في صدى مقاومته ..

جاءني صوته مرة أخرى عبر الهوة التي تفصل بيننا ..

— نجلاء .. ماذا يحزنك ؟ . أنا لا أحمل أن أراك حزينة ..

هزرت رأسي أقول :

— لا شيء ..

ونادى هو بالجرسون وتقدمه قروشه .. وأخذ يدي بين يديه وهو يقول ..

— أنت في حاجة للمشي .. والثروة ..

ومشينا كأبائنا الماضية .. يدي في يده .. وقدمه تصاحب قدمي .. وهواء

الخريف المشرب بالبرودة يصفع خدي ويدفع بنفسه من فتحة الثوب فيعرش

جسدي وأزداد إحساساً بأنه يتلصص على .. إنا نمر بنفس الطرق كأبائنا

الماضية .. ولكن شيئاً في أنا وفيه هو كان قد تغير .. إحساسي أن تلك اللحظات

مآلها أن تنوى كذكريات ميتة بلا غد .. بلا مستقبل .. وشعوري أنه هو قاتل

اللحظات الجميلة لأنه لا يتيح لها مستقبلاً .. ولماذا يفعل ذلك ؟ . أنا لن أسأله ..

أنا مازلت لا أحب الشتاء .. والخريف بوابة ندخل منها مرغمين إلى

جبانة الشتاء .. السماء تفقد ضياءها الباهر .. في عتمة الغيوم .. والأشجار
تفقد أوراقها ..

قال أحمد :

— نجلاء .. تحدثي ، قولي أى شيء ..

ما فائدة أن أتكلم مادام هو لا يحس بالعذاب في أعماق .. ماذا أقول له ؟
لن أقول له شيئاً .. أجبت :

— لا شيء .. مجرد تلك الفترة من السنة لا أحبها ..

— لماذا ؟

— لأنها توديع لسنة من عمري .. فالأيام تجري والسنون تجري .. ونحن ليس
في يدنا سوى أن نحيا قيمة الصلح الذي أعطته لنا الحياة بمبلغ من السنين
لا ندرية .. فإذا انتهى انتهينا .. أضفت بعد فترة من الصمت ..

— كل شيء يموت .. لا شيء يخلد أبداً .. إن مجرد تصوري أن كل الناس
الذين يعيشون الآن يموتون كلهم ويأخذ مكانهم فاس أغراب لا أعرفهم
ولا يعرفونني .. لهُو شيء عزن .

قال أحمد :

— هذه نظرة حزينة جداً إلى الدنيا .. لم يكن من عادتك أن تنظري إلى الدنيا
هذه النظرة ..

ولم أشأ أن أقول له أنت الذي علمتني هذه النظرة .. أنت الذي أورثتني
هذا الحزن الذي لا شفاء منه .. وسمعتة يقول .. في استسلام ..

— تلك هي الحياة .. ليس أمامنا سوى أن نحياها ..

— وسوى أن نرضخ ؟

— إذا أردت هذا التعبير فسأستخدمه .. هو رضوخ جميل على أى حال ..
جميل أن نحيا ..

– وجميل أن نموت ؟

– ربما .. ما جدوى الاستمرار في الحياة .. إذا كنت قد عشت لحظات
بعمق واستمتعت بمباهج جمالها .. وحاولت أن تفهمها .. إن الموت
يصبح نتيجة حتمية عندئذ ..

قلت بعد تفكير :

– أتعلم لماذا لا تترك الطبيعة أحداً يخلد ؟

نظر إلى أحمد باهتمام .. أردفت :

– لكيلا يكتشف أحد سرها .. إنها تخبئه بكل كنوز معرفته وتجاربه وعلمه ..
إنها تفنيه ليعود من أول الطريق كطفل رضيع .. يحاول صيياً وشاباً
ورجلاً ... حتى إذا نبغ أت عليه خوفاً على سرها من الذبوع .. ولتظل
أبدأ لغزاً مغلqاً علينا ..

لماذا وجدنا .. لماذا نحيا .. ولماذا نموت ؟

– ولكن الإنسان لا يموت بكل تجاربه .. إنه يتركها للناس من بعده ..

– يترك بعض الذى أدركه .. لقد ماتت بالتأكيد حقائق كثيرة مع الذين ماتوا
واندثرت إلى الأبد ..

– أنت تستطيعين إدراك أجوبة كثيرة على أسئلتك العديدة .. دون خلود

من مجرد حبك للحياة .. ومحاولتك فهمها .. عيشى وتمتعى بحياتك ..

– هذا هو كل ما نستطيع قوله ..

قررت أن أستمتع وحلى بشيء صغير .. دون أن يشا ركنى إياه أحمد..
 خرجت بعد ظهر اليوم إلى الشارع .. مشيت بجوار الشاطئ .. وحيدة ،
 وإلى مدى بصرى كان الطريق خالياً من أى إنسان .. والشجر تساقط أوراقه
 ليتلقاه الهواء فى دوامة دائرية تصعد بها إلى أعلى ثم ترميه إلى الأرض .. والنيل
 يسرع الخطأ .. تدفعه آلاف الدوامات إلى مصيره ..

وفى السماء تكسبت كتل ضخمة من السحاب .. رمادية .. والبيوت
 الموازية للنهر بدت مقفلة كلها كأن أحداً لا يسكنها ..

وحشة .. فى كل مكان .. وأنا مصرة برغم الوحشة على الاستمرار فى
 نزهتى . ومضيت أعد خطواتى .. واحد .. اثنين .. ثلاثة .. أربعة .. خمسة ..
 ستة .. سبعة ثمانية .. تسعة .. ولكن لماذا لا أستمتع بالترهة اليوم .. وهى
 تماماً كترهة أمس ؟ . فقط لاتصاحب خطواتى خطوات أحمد ولا تمسك يده
 بيدي .. ولا ينفذ إلى أذنى صوت صغير الهواء ووشوشة أوراق الشجر بجوار
 الرصيف .. إن ما ينتصنى هو أحمد ..

رحت أفكر فى أسباب حزنى تلك الأيام .. لماذا صنعت بنفسى كل هذا
 العذاب ؟ .

إنه أحمد والتغيير الذى دخل على تصرفاته نحوى .. وانسحابه القامى
 من حياتى .. ولكن لماذا لا أقبل أحمد كما هو ؟ . لماذا لا أقبل تغييره ؟ .

يوم أن كنت عند شريفة فكرت أن عيب المرأة وتخلفها يرجع إلى أنها
تصنع من الرجل كل حياتها .. وما أنا قد صنعت من أحمد كل حياتي للرجة
أن تغيره قد قلب حياتي رأساً على عقب .. ولكفى سأقبل أحمد كما هو على
حلاته وأجعله جزءاً من حياتي وليس حياتي كلها .. أرضاني هذا التفكير ..
وجعلني أتخلص من تعاسي إلى حد كبير ..

قدمت أوراقى إلى كلية الفنون .. وقبلت .. ومضيت أنتظر بداية العام
للدراسى الجديد .. إلى أن يبدأ رحى أفكر .. ماذا يجب أن أفعل بنفسى ؟
ركبت العربى إلى شارع قصر النيل .. وابتعت ستائر وردية مزينة بورود
وابتعت أثواباً جديدة .. وداخلتى فرحة وأنا أبتاع هذه الأشياء ..
ازدادت الفرحة فى قلبى عندما تم تفصيل الستائر .. وأسدت على
النافذة والشرقة فأعطت للحجرة جواً بهيجاً وأسبغت على النور الذى ينفذ
من فتحات الشيش الصغيرة لونها الوردى الشاب ..

ارنديت ثوبى الحديد وذهبت لمقابلة أحمد .. ودخلت إلى الفندق الكبير على
النيل .. فتح لى الباب الزجاجى .. فدخلت إلى الداخل .. أخذت العيون تنظر
إلى .. وتنسلق قائمى .. وتمهل عند وجهى وتلتصق بجلدى .. لم آبه لما .
اتجهت إلى مائدة متروية .. حيث ينتظرنى أحمد .. خلعت فردة قفازى
بتمهل وربت الواحدة بيجوار الأخرى بهدوء .. إن الهدوء يغلفنى بالرضا هذا
الصباح ..

— كيف حالك يا نجلاء ؟

— أنا فى أحسن حال .. لقد أصبحت الحياة فجأة ترضينى .

قال بهدوء ..

— جميل .. ولكن ما السبب ؟

— لست أدرى .. ربما لأنى غيرت ستائر حجرتى ..

— هذا سبب طريف جداً ..

— أصبحت أحب فجأة كل الأماكن وكل الناس ..

— وماذا أيضاً ؟

— واشتريت فستانين جديدة ..

— أنت دائماً تشتريين ..

— أنا فكرت .. وفكرت .. ربما أصبحت الحياة جميلة لو حاولت أن أجد لى

هدفا أعيش من أجله .. لو تعلمت شيئا .. إننا خلقنا لتعلم .. أنا أنظر
بين الوردية في الإثناء أمامي .. إن كل الفرق بيني أنا العاقلة وبين تلك الوردية
أنها تنمو تلقائياً .. هذه النتيجة أمدتني .. وحقت الوفاق بين روجي
وحسدي .. فلم يعودا منفصلين كدأبهما في الماضي .. ولم يعد جسدي
بيناً بلا نوافذ وبلا أبواب .. سوف أحاول أن أنمو مثل هذه الوردية ..
رفعت عيني إلى أحمد فوجدته يحاول محاولة فاشلة للابتسام لمشاركتي
سعادتي .. إن أحمد جزيرة .. وأنا أيضاً جزيرة .. كلانا منفصل عن
الآخر بمياهه الخاصة .. من المستحيل العبور إليه ..

هس أحمد :

- من أحزاني انبعثت سعادتك وانفتح أمامك طريق النجاة .. لسنا سوى
الطبيعة نفسها .. تموت الزهرة ومن حبوبها تنبعث حياة أخرى ..
لماذا يتكلم أحمد هكذا اليوم ؟ .
- أنا أموت من حياتك اليوم .. وغداً أموت من اندنيا كلها ولا يبقى سوى
الكلمة التي أقولها وأمضي ..
عاد أحمد ليأسه .. وقسوته ..
- ليس هناك حب على الإطلاق .. ليس هناك حب للآخرين .. هناك حب
الشمس فحسب .. الحب الكبير الواحد .. حب الصيرورة .. ما أكونه في
كتاب أو لوحة .. وكل ما عدا ذلك يموت ويتحلل ..

قلت ..

- أنا آسفة لأنني آلمتك ..
- لا .. لا تأسني أنا من داخل شقائي سعيد .. سعيد أن أكتشف ذلك .. فلا
شيء يعلو على الحقيقة .. لا شيء .. لا أنا ولا أنت .. ما نحن سوى وسائل

لتكشف الطبيعة عن نفسها وهي تظهر فقط للذى يضحى ويعطى أكثر من
نفسه ومن ذاته .. عندئذ تعطى الطبيعة جزءاً من حقيقتها ويقدر ما تعطى
يقدر ما تمنح ..

صمت أحمد وشرد بعيداً واصطبغت عيناه بنظرة غامضة كأنها تطل
على عالم آخر .. وشعرت أنى لا أستطيع أن أصل إليه إلا بالام كآلامه ..
كان يبدو لى أكثر غموضاً من أى يوم .. عاد يقول :
— اسمعى هذا المعنى الحزين من داخل سعادتك ..

أنت سعيدة لأنك تقتلين حبي فى قلبك .. أنت تهجرينى وأنا بجوارك..
وعندما تنقطع صلتك بى سيتوقف بالتالى عذابك ..
حاولت مقاطعته ولكنه أكمل :

— لم أعد أملاً أو هدفاً فى حياتك .. ولم يكن وراء كل تلك العواطف سوى
حبك لنفسك فلما انقطع أملك انظناً بالتالى ما ظنته حباً لى .. وكان فى
الحقيقة حباً لذاتك ..
قلت :

— لماذا تربط حبي بالحديد للحياة بعدم حبي لك .. ألم يكن هذا اليوم هو
هو اليوم الذى انتظرت لى .. يوم أن أحب الحياة ؟ ولكنك تتخلى عن علو
الفنان وتنزل إلى أنانية العاشق فتغار من حبي بالحديد للحياة لأنه سوف
يأخذنى منك ..

رد أحمد فى شرود :

— نجلاء .. أنا لا أفهمك ..

— سوف أشرح لك نفسى .. بل سأعري عواطفى .. وأحكى لك حبي
دون خجل ..

- هو نوع من الحب لم تعرفه ولم تحسه .. وأنا أمتحه لك لتضيفه إلى جزئيات الحقيقة التي تلمع وسط ركام الحياة والتي شغقت بجمعها .. بدأ حبي بحاجتي الملحة لاهتمام شخص ليثبت وجودي أيامها كنت في حالة من القلق والشك والضيق بعد موت أخى .. وعندما ظهرت أنت ووجدت في عينيك ذلك الأسى أحببت حزني فيك .. وكدت أن أتصق بك التصاق السابق بأخى ولكنك أبعدتني .. وأعطيتني الثقة بنفسى وشجعتني على أن أقف وحدى .. وأنا أعترف بأنى أدبى لك بذلك التكوين الجديد في نفسى .. ذلك التكوين الذى أخذ ينمو ويصنع جميع تصرفاتى .. أصبحت على وفاق مع نفسى فأصبحت بالتالى على وفاق مع الآخرين .. أحببت الحياة وأحببتك وأحببت كل شيء فيك حتى ذلك الصراع الذى يلازم جلساتنا .. وفوق ذلك منحتنى يا أحمد الوعى الوطنى ومنحتنى الشعور بالانتماء إلى بلدى مصر ولكنك فجأة وبدون مقدمات بدأت تتغير .. بدأت تبعد .. وشعرت أنك تريد الانفصال .. واستبدت في الحيرة .. وكان يجب أن أفعل شيئاً حتى لا أفقد عقلى .. وسافرت هاربة إلى العزبة .. وهناك استطعت أن أصنع بنفسى من الداخل شيئاً أشبه بالاستتصال .. والآن مازلت أحبك ولكنى أستطيع أن أبتعد أو أقرب منك دون أن أموت ..

أمسك بيدي وضغط عليها ضغطاً قوياً حياً وامتلاأت عيناه فجأة بدموع حقيقية .. ظللت أنظر إلى هذا الوجه الأسمر الذى أحبته وهاتين الشفتين الرقيقتين ذات التعبير الصادرم . والإرادة الماضية ..

رفع أحمد إلى وجهها فيه نظرة جد روعتى وبشت الخوف إلى قلبى .. قال.

- نجلاء .. إذا كنت تملكين تلك الشجاعة الكبيرة التى تأبى الكذب ولا تتوسل بالكبرياء الزائفة .. فأنا أكون شجاعاً وسأقول لك الحقيقة .. برغم الآمال

الكاذبة التي يلفقها لى الأطباء ، فأنا أعرف بإحساس أنى أموت .. وأن
خلية وراء أخرى فى جسدى تضعف وتغمض جفنيها وترفض منازل
جيوش المراض التي تغزو جسدى فى كل لحظة .. أنا أموت تدريجياً وأرفض
أن أصنع منك أرملة ..

— لا تقل هذا يا أحمد ..

— الحياة لا تتوقف لموت أحد .. ولانصمت لحظة إجلالا لذكرى إنسان
راحل وإنما هى تنساب فى هدوء قاس متباعد القلب .. وكان الموت مسألة
لا تعنيها ، وكأن الميت لم يكن له ذات يوم صوت يملأ الدنيا .. ولا مفرلنا
من الاستسلام أمام تلك القوة ..

— إن كلمة الاستسلام لا تليق بك يا أحمد .. أنا لا أَرْضى لك أن تقول هذا
الكلام .. أول ما أحبيت فيك كانت نظرة التحدى بعينيك ..

أحمد .. من أجل فنك .. من أجل حبنا سافر .. تملك بآخر أمل
قاله الأطباء .. يجب أن تصارع من أجل ذلك الكنز الذى يحتويه جسدك.
صارع يا أحمد .. لا تستسلم .. وإذا كان يجب أن نموت فيجب أن نموت
ونحن نصارع الموت بلا خوف ..

انبتى فى عيني أحمد نور أضاء كل وجهه وشعلنى ورفغنى على ضوته
إلى مماء رحبة واسعة .. تلامست أيدينا وتعانقت روحانا بوقاق وأمل ..
وسافر أحمد ..

سافر أحمد وبقيت وحدى فى القاهرة .. بل لم أبق وحدى .. بقيت
مع نفسى .. ثلاثى لأول مرة شعورى الدائم بالغربة .. فقد وجدت نفسى ..
ولكنى برغم ذلك ظللت أفقد أحمد الحبيب الذى أدين له بكل حياتى ..

افتقد أحمد البطل الذى كان يعلم طوال الوقت أن الأطباء يكذبون
عليه بالآمال .. وبرغم ذلك استطاع أن يعيش ويهزم العدو الذى يسكن في
جسده والعدو الذى يسكن في بلده .. استطاع أن يعيش ويحارب في جميع
الجبهات ..

وجاء أحمد في رسالة ..

« نجلاء .. يا حبيبتي الصغيرة التي أصبحت جزءاً من نفسي ..

ها أنذا أصارع .. كما أردت لي أن أصارع .. وأحاول أن أصنع
المستحيل .. ترى هل أعيش لأصارع الصراع الكبير .. وأهزم الداء الكامن
في بلدي .. كما أهزم الداء الكامن في جسدي ؟ . هل أعيش لأرى اليوم
الذى يأكل فيه الجائع ويكتسى العريان .. وتحقق العدالة وينتهى طاغوت
الظلم والظالمين ؟ .

هل أشهد ذلك الفجر الرائع ؟ . »

قرأت الخطاب بدموع اليأس وقرأته أيضاً بابتسامة الأمل .. وظللت
أقرؤه وأقرؤه حتى حفظت الكلمات .. معنى الكلمات .. شكل الكلمات
ونخط الكلمات .. ظللت أردد جملاً بأكملها كترنيمة روحية من السماء ..

جاءتني الجريدة مع الإفطار في حجرتي .. تناولت الشاي كعادتي وأمسكت الجريدة وقرأتها .. قرأت العناوين الكبيرة .. وانزلت عيناى إلى شبه اسم أحمد على الصفحة الأولى .. إنه ليس شبه اسمه .. إنه اسمه فعلا .. ما الذى جاء بإسم أحمد في الصفحة الأولى كخبر ؟ . الخبر يعلن ماذا ؟ الخبر يزعم أن أحمد مات .. كيف تزعم جريدته أنه مات ؟ .. كيف نخون ابناً من أبناؤها ؟ . أحمد لا يمكن أن يموت .. أحمد وعدنى أن يصارع ويرجع منتصراً .. حيبى لا يمكن أن يموت .. كيف قبل رئيس التحرير أن يدس هذا الخبر الكاذب في جريدته ؟ . وكيف رضى زملاؤه بذلك ؟ . وكيف تأمروا ضده ؟ حتى جامع الحروف الذى طالما جمع أفكار أحمد هو نفسه الذى جمع تلك الحروف السوداء المشنومة .

أمسكت الجريدة مرة أخرى وبدأت أقرأ من جديد .. ليس هناك خطأ .. المعنى صريح واضح والكلمات المرصوفة السوداء تنعى أحمد .. الكلمات في حروف قليلة باترة .. وأحسست أنى أنزلت .. أغوص في بحر الحزن الأسود وأغرق في سواد الحروف .. تمنيت أن أموت .. أن أتجمد .. أن أتحوّل إلى تمثال لا يشعر .

أمسكت بالجريدة وقلبت الصفحات لأقرأ العزاء التقليدى .. أحمد مات .. ومع ذلك تشرق الشمس كعادتها كل يوم وكأن لا شيء

حدث ..

اردت شيئاً يحسم لى أحمد .. شيئاً يقربه منى .. وهناك فى العزبة أحسست
 به فى الأرض .. فى ثراها الطيب .. وبراعمها الخضر ..
 رحت أتجول فى الحقول وأتأمل السماء وأذكره .. إنه لم يضع منى ،
 إنه هنا معى .. يكلمنى بلغة الورود والأنام :
 هبت نسمة باردة على المزرعة أثلجت وجهى وأطرافى . ضمنت الجاكت
 إلى صدرى ومضيت أسمع صوت أحمد الذى تحول إلى موال رينى عميق ..
 هبط الظلام على الكون رويداً ومسح بقايا الظلال ..
 إن أحمد لم يموت .. إننى أراه فى كل شىء جميل .. فى الطبيعة الفناة ،
 فى الأمسى الذى يغلف السماء فى رحابة الأفق .. إنه لم يموت إنه يكلمنى ويتحدث
 معى عبر الكون كله ..
 إن الواحد منا لا يموت .. إننا أجزاء من الطبيعة الأم .. ننفصل عنها
 بالحياة .. ثم نعود إليها بالموت .. فتصبح الطبيعة الكل ..

رجعت إلى القاهرة .. وتحول حزنى العميق إلى إحساس ملح بأن الحياة
يجب أن تستمر .. واجبى نحو ذكرى أحمد .. ونحو نفسى أن أستمع أن
أصارغ قدرى وأنتصر فى تلك اللعبة غير المتكافئة .. واجبى أن أصنع من
نفسى شيئاً .. بهذا يصبح موتى انتصاراً وليس هزيمة ..
فتحت الكلية أبوابها .. ودخلت إلى دنيا الفن الجميل .. دنيا التعبير
بالخط واللون ..

سأحدث أول ما أحدث باللون عن اللالون .. عن السواد .. عن الحزن ..
عن حبي الشمس .. سأقول فى لوحة تصرخ بالألوان المشتعلة .. إن الواقع
الذى نعيش فيه واقع كاذب مزيف ملئ بالمظالم .. سأحرك المشاعر وأثير
الوجدان وأدافع عن الإنسان المظلوم فى كل مكان ..
فتحت باب الفيلا ووقفت على السلم المؤدى للحديقة ..

فاجأنى طواير هائلة من الأسلحة الثقيلة والمصفحات متجهة إلى طريق
الإسكندرية وصكت أذنى صيحات باعة الصحف .. تعلن عن ثورة الجيش
وانقلاب ٢٣ يوليو ..

وقفت فى مكانى مشدوهة .. أتبع الطواير التى تمر متعاقبة أمام عيني ..
نظرت إلى شجرة الشمس .. كانت موجودة .. هناك فى مكانها منتصبة

في قوة مورقة في جمال .. مرتفعة في سمو .. متغلغلة في الأرض .. واقفة
في وحدة أبدية تعلن عن انتصار الحياة ..

وكانت صلصلة سيور الدبابات تهز الأرض .. وأنا واقفة في مكاني
أبتسم ..

لقد بدأ الفجر يلوح ...